الكتاب الخامس

الفصل الأول

كيف أعدّ ماركيز مونديخار جيشه للتصدى للثوار.

كان مواطنو غرناطة فى تلك الآونة مرتبكين ومنزعجين للغاية، تكاد تساورهم مشاعر تشبه الندم على رغبتهم السالفة فى اندلاع ثورة الموريسكيين؛ حيث أخذت الأنباء ترد كل ساعة حول عمليات القتل والسرقة والحرائق التى ارتكبها الموريسكيون فى سائر الأرجاء. فأعياهم التفكير فى الأمر، وتخلوا عن رغبتهم السابقة، وأمسوا لا يفكرون سوى فى الانتقام. قام ماركيز مونديخار باستعجال المدن من أجل أن يسرعوا فى إرسال الرجال ليخرجوا معه فى الحملة؛ لأن الأعداد الموجودة بالمدينة لم تكن تكفى لخروج بعضها وبقاء البعض الآخر، وأكد لهم أن تأخرهم قد ينجم عنه أذى وأضرار كبيرة، إذا ما تمكن الثوار - الذين باتوا أسياداً على البشرات والوادى - من فرض سيطرتهم على بقاع الغوطة كذلك، نظراً لعدم توفر أعداد المقاتلين اللازمين لقمعهم، بينما قواتهم آخذة فى التزايد وكذا شرورهم.

حينما وصلت كتائب الفرسان والمشاة من مدن لوشة، والحامة، وقلعة يحصب، وجيّان، وأنتقيرة؛ تراءى للماركيز أن العدد قد بات كافيًا مما يمكنه من مغادرة غرناطة؛ فخرج من تلك المدينة فى يوم الإثنين الموافق الثالث من يناير لعام ١٥٦٩، تاركًا لولده - كونت تينديًا - تولى شؤون الحرب والإمداد فى المعسكر. فقطع فى ذلك المساء مسافة قصيرة تبلغ فرسخين، وذهب إلى الهندين، حيث قضى ليلته تلك. بعد أن جمع القوات التى كانت تعسكر فى أوتورا Otura، وفى مواضع أخرى من الغوطة، توجه بهم فى صباح اليوم التالى ليسلك الطريق إلى بادول - أول بقاع وادى ليكرين -

حيث كان يفكر فى إعادة تشكيل جيشه هناك. كان يرافقه ألفا راجل وأربعمائة فارس، وكانوا رجالاً نافذى البصيرة وجيدى التسليح، على الرغم من كونهم غير متمرسين وقليلى الالتزام.

صحب الماركيز آنذاك صهره –السيد ألونسو دى كارديناس– الذى صار حاليًا كونت لا بويبلا، وولده السيد فرانثيسكو دى مندوثا، والسيد لويس دى كوردوبا Luis de C?rdoba، والسيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وفرسانٌ آخرون، وبعض الوجهاء. كما تواجد السيدان أنطونيو مورينو Antonio Moreno وإيرناندو دى أورونيا Hernan-do de Oruña – اللذان أمرهما جلالة الملك أن يقدما المشورة إلى الماركيز، لخبرتهما وتمرسهما فى شئون الحرب. وكان هناك العديد من القادة والفرسان، وجنود قدامى سرهم تقاضى الراتب المعتاد فى مقابل خدماتهم. وقد قدم السيد بدرو بونثى Pedro Ponce من جيّان على رأس كتيبة الفرسان، والسيد بالينتين دى كيروس Valentón de Quirós مع جموع المشاة. وكذلك فقد حضر من أنتقيرة ألبارو دى إسلا Antequera Alvaro de Isla- المأمور القضائى لتلك المدينة، وكبير الحجّاب غابرييل دى تريبينيون Gabriel de treveñón برفقة مجموعتين آخريين. كان قائد قوات لوشة هو نائب مجلس البلدية خوان دى ريبيرا، أما إيرنان كاريّو دى كوينكا Hernán Carrillo de Cuenca فكان قائد رجال الحامة، ودييغو دى أراندا Diego de Aranda قائدًا على من قدموا من قلعة يحصب.

إضافةً إلى ذلك فقد أتى جموع من النبلاء البارزين من غرناطة وأراضيها، وكتائب الرمّاحين النظاميين تحت إمرة غونثالو تشاكون Gonzalo Chacón ودييغو دى ليّبا Diego de Leiva، وأمهر فرق الرماة بالمدينة وأكثرها عددًا بقيادة لويس مالدونادو Luis Maldonado وأخيه غاسبار مالدونادو دى سالاثار Gaspar Maldonado.de Salazar وصل ماركيز مونديخار فى تلك الليلة إلى بادول برفقة كل أولئك الرجال؛ وقبيل دخوله إلى البلدة، خرج إليه رجالات الموريسكيين البارزون، ورجوه ألا يبيت الجنود فى منازلهم؛ وعرضوا عليه أن يمدوه بالزاد والحطب اللازمين لإعاشتهم فى المعسكر؛ لأنهم

كانوا يخافون بشدة من الاضطرابات والقلاقل التى سيثيرونها. على الرغم من أن الماركيز كان يروق له إرضاؤهم، فلم يكن بمقدوره تلبية مطالبهم؛ لأن الطقس كان قارس البرودة، والجنود لم يتقاضوا رواتبهم بعد، وهم ليسوا معتادين على العمل الشاق، وكان قضاؤهم الليلة فى المعسكر يبدو لهم أمرًا بغيضًا للغاية. فقال للموريسكيين إن عليهم أن يتحلوا بالصبر؛ لأن الحملة لن تمكث سوى ليلةً واحدة؛ وإنه سيحتاط للأمر حتى لا يصيبهم أى مكروه. وهكذا تمكن من طمأنتهم إلى حد ما، فرضوا بإيواء الجنود واستضافتهم فى منازلهم خلال تلك الليلة؛ بيد أنهم لم يقضوها بأسرها فى هدوء، للأسباب التى سنسوقها لاحقًا.

الفصل الثانى

كيف أغار الموريسكيون على رجالنا الموجودين فى دوركال، أثناء وجود ماركيز مونديخار فى بادول، وألحقوا بهم الهزيمة.

فى الليلة ذاتها التى وصل فيها ماركيز مونديخار إلى بادول، أغار المسلمون على موضع دوركال - الذى يبعد عن ذاك الأخير بفرسخ - وكان القائد لورينثو دى أبيلا يعسكر فيه مع القوات التى أرسلتها القرى السبع الكائنة فى نطاق غرناطة، إضافةً إلى القائد غونثالو دى ألكانتارا، الذى كان يترأس خمسين من الفرسان. لم تبق أنباء ذاك الهجوم طى الكتمان، على النحو الذى يحول دون تنبه القائدين إليها؛ حيث أمسك جنود ذلك المعسكر باثنين من الجواسيس، فى ذات اليوم الذى غادر فيه ماركيز مونديخار غرناطة. كان أحدهما يقوم بتخريب معدات المطحن، الذى يُطحَن به القمح اللازم لإطعام الجنود. أما الآخر فكان ابنًا لأبوين مسيحيين؛ وكان قد تربى منذ صغره بين الموريسكيين، ونشأ معتادًا على حيلهم؛ فبعث به ميغيل دى غرانادا شابا - قائد المسلمين بالوادى - ليتجسس على حجم القوات الموجودة فى ذاك الموضع، وليتعرف على ما قاموا به من احترازات.

لم يشأ الجاسوس الذى قبض عليه فى المطحن أن يعترف بشىء، على الرغم من أن جنودنا قطعوه إربًا أثناء تعذيبه. أما الغلام، فقد تمكن عالم اللاهوت أوخيدا - قسيس نيغويليث - وكان قد أمر بالقبض عليه، بإقناعه لكى يدلى باعترافاته - ما بين الخوف والرجاء - ؛ فأقر بالحقيقة كاملة، وبالهدف الذى أرسلوه من أجله. فقال إن أهالى لاس ألبونيويلاس، حينما أرادوا أن يقوموا بالثورة، استعرضوا قواتهم؛ فألفوا

بين صفوفهم مائتى رام وقواس، وثلاثمائة رجل من حملة السيوف والأسلحة التقليدية. وأضاف أن الموريسكيين الغرباء والثوار الجبليين قد أحرقوا الكنيسة؛ الأمر الذى ندم عليه الأهالى، بعد أن رأوا أن موريسكيي البيّازين والغوطة هادئين ولم يثوروا. عندما رغب القوم فى العودة إلى ديارهم -اقتداءً بالنصح الذى أسداه إليهم حاجب البلدة - أعاقهم الثوار الآخرون عن القيام بذلك. حيث أخبروهم أن الوقت الآن لم يعد مواتيًا لإبداء الأسباب أو طلب العفو؛ لأن المسيحيين لن يصدقوهم، أو يضعوا فيهم ثقتهم ثانية، بعد أن شاهدوهم يعلنون عن قيام الثورة. وقالوا إن القائد شابا قد جمع أعداداً غفيرة من المسلمين، من مواضع أورخيبا، والوادى، وموتريل، وشلوبانية - من بينهم ستمائة رام - وتوجه بهم للإغارة على دوركال، ولا بد أنه سيبادر بالهجوم على ذلك الموضع فى الليلة التالية.

توجه القائد لورينثو دى أبيلا فى ذاك المساء إلى ماركيز مونديخار، ليخبره بالتحذيرات التى وصلت إلى علمه، حاملاً الغلام برفقته. لَمّا أمسى الظلام حالكًا، رجع إلى مقر إقامته تحسبًا لوقوع أى أحداث؛ وما إن وصل إلى هناك حتى أمر بإذاعة قرار يقضى بألا ينفصل أى من الجنود عن الركب باتجاه المنازل، وأن يحتشدوا جميعاً فى الكنيسة - التى تمكث بها مجموعة الحراسة. وكذلك فقد قام بتدعيم أطقم الجياد وتعزيز نوبات الحراسة، وزاد نوبات حراسة أخرى فى المواضع التى تراءى له أنها بحاجة إليها. أما القائد غونثالو دى ألكانتارا، فقد وضع سلاح الفرسان - الذى كان مقيمًا بمارخينا Margena، وهو أحد الأحياء القريبة من دوركال - فى حالة تأهب؛ وأمر الفرسان بمجرد استشعارهم حمل الثوار للسلاح، بالتوجه من مقر إقامتهم نحو أحد الحقول المنبسطة الكائنة أمام ساحة الكنيسة، وهم ينفخون الأبواق. لأن ذاك الرجل المحنك أدرك التأثير الذى سيسفر عنه مواصلة تحفيز الجنود، وكذا التثبيط من عزيمة الأعداء، لدى مشاهدتهم إياهم ينفخون الأبواق أثناء مسيرتهم باتجاه موضع معسكر ماركيز مونديخار؛ لأن ذلك يعنى بالضرورة أن النجدة قادمة فى الطريق.

وهكذا أخذ القائدان الجسوران فى الاستعداد واتخاذ الاحتياطات؛ أما شابا – الذى لم يغمض له جفن – فقد جاء يحث الخطى مستترًا بظلمة الليل. عندما بات على مقربةٍ من المعسكر، أعاد توزيع الستة آلاف رجل الذين كانوا بصحبته إلى قسمين: فقام هو بذاته برفقة ثلاثة آلاف رجل باحتلال هوة عميقة للغاية – ما بين بادول وحى مارخينا– يتعين على قوات الإغاثة المرور بها؛ أما الثلاثة آلاف رجل الباقون، فقد أرسلهم مع قادة آخرين، حتى يغير بعضهم على المعسكر من ناحية الطريق الموصلة بين مارخينا ودوركال؛ بينما يهاجم الباقون من مكان آخر يقع باتجاه الجبل. وقد أمرهم بمحاولة تجنب السير فى الأراضى المنبسطة قدر استطاعتهم، حتى لا ينال منهم الفرسان. وهكذا وصلوا قبيل بزوغ الفجر بساعتين، وكان الجو آنذاك قارس البرودة، وكان الظلام حالكًا. استشعرت دورياتنا مجيؤهم – وإن تأخروا فى ذلك – وشهر الرجال أسلحتهم. لمّا كانوا متأهبين جميعًا، فقد اقتحم الكل المكان من الخلف؛ ولم يكن خوف المُهَاجِمين أقل من خوف المُدافعين.

فيما يتعلق بالقائدين – اللذين كانا حينئذ يتفحصان الاستعدادات – فقد قدما فيما بعد للتصدى لذلك الهجوم، إلا أنهما سرعان ما ألفيا نفسيهما وحيدين. فقام لورينثو دى أبيلا بمجابهة من أتوا لاقتحام الموضع من أحد الحقول الكائنة أمامه بسيف واحد وترس مدور؛ وحملهم على التراجع، محدثًا بهم العديد من القتلى والجرحى؛ وعندما جُرِحَ بنصل أحد السهام – الذى اخترق فخذيه – تم إنقاذه وحمله إلى الكنيسة. أما غونثالو دى ألكانتارا، فقد تمركز ناحية الطريق المؤدى إلى مارخينا، ليتصدى لجمع غفير من الأعداء جاء من تلك الجهة. كان الاضطراب السائد بين صفوف رجالنا فى تلك الآونة عظيمًا، حتى أن الرجاء والتهديد كليهما لم يفلحا فى حملهم على مغادرة الكنيسة؛ كما لو كانت قسوة تلك الليلة وإظلامها تناصر الأعداء. ولإدانة ذلك التخاذل، فأنا لن أتوانى عن ذكر قيام العدد منهم – بمجرد سماعهم دوى الأسلحة المهاجمة – بإلقاء السلاح والاحتماء داخل الكنيسة، بعد أن اتخذوا من غيرهم دروعًا لهم، لكى يتفادوا الموت قبلهم على أيدى المسلمين. وكذلك فلن يصمت قلمى عن

تناول شجاعة القائدين المغوارين والجنود الذين واجهوا العدو للذود عن الجميع، وبادروا بالهجوم - وإن لم يقدموا على ذلك دفعةً واحدةً - فلم يحدثوا أثرًا كبيرًا، لأن الأعداء كانوا يفدون من نواح عديدة؛ فقاتل كل منهم على حدة، ودفعوا ببسالتهم الكبيرة خطرًا محدقًا. لأن المسلمين، عندما جابهوا كل تلك المقاومة، وأحسوا بالقصف المدوى للأسلحة، لم يعتقدوا أنها صادرةٌ من الأناس الفارين، وإنما من الاحتياطات التى اتُخِذَت للتصدى لهم؛ فخفت وطأة هجومهم، حتى إنهم بدأوا فى التراجع.

فى تلك الآونة شاهد القائد ألكانتارا السيد لورينثو دى أبِلا -رغمًا عما به من جراح - يسعى لإخراج الرجال من الكنيسة، وتحميسهم على القتال؛ فرجع إلى موضعه بصحبة اثنى عشر أو ثلاثة عشر جنديًا -حيث لم يتبعه أكثر من ذلك - لأن الأعداء عاودوا الهجوم عليه. كما هرع إليه ثمانية من رجال الدين: أربعة رهبان من مذهب القديس فرانثيسكو، وأربعة من اليسوعيين؛ وأخبروه أنهم يودون الموت من أجل المسيح، وهو ما لم يجرؤ الجنود على فعله. بيد أنه لم يجبهم إلى مطلبهم، ورجاهم أن يقوموا بعملهم، ويسارعوا لدعم الأناس الموجودين على رؤوس الشوارع المؤدية إلى الساحة، لكى لا يخذلوهم.

عندما أدرك الموريسكيون أنه لا يوجد من يتعقبهم، عادوا للإغارة على الموضع؛ وكان يتقدمهم رجلٌ يحمل لواءً فى يده، ظل يسير حتى وصل إلى ميدان يجاور نزلاً موجودًا بالمنطقة الشمالية. لمّا لم يجد الرجل أحدًا هناك، أخذ يطلق صيحاتٍ عاليةً باللغة العربية، قائلاً لزملائه أن يدنو؛ لأن المسيحيين قد لاذوا بالفرار. فلحقه غونثالو دى ألكانتارا، والتحم مع المسلم حامل الراية، فطعنه بالسيف فى كتفه الأيسر، وأرداه قتيلاً على الأرض؛ لكن تكالب عليه آخرون قدموا من الخلف، وكادوا يفتكون به، لولا الأسلحة التى كانت بحوزته، والدرع الذى كان يلبسه. مع ذلك كله كالوا له طعنةً بالسيف فى وجهه، وألقوه على الأرض على ظهره، وانهالوا على ذراعيه ضربًا. عندئذ لم يتخاذل عن إنقاذه جندى مخلص - من أهالى أنتقيرة - يدعى خوان رويث كورنيخو Juan Ruiz Cornejo؛ فهب لنجدته، ولم يتح للمسلمين الإجهاز عليه؛ وبات يدافع عنه،

بسيفٍ في يده، ودثارٍ ملفوفٍ على ذراعه؛ فقتل رجلين من المسلمين، كانا أكثر من تولى إيذاءه.

أعقب ذلك وقوف غونثالو دى ألكانتارا على قدميه، وعودته للقتال بحمية أشد. فلحق به أحد الرهبان الفرانثيسكيين يحمل مسيحًا مصلوبًا في يده، وقال له: "أى أخى، انظر هنا إلى المسيح عيسى، فهو مخلصك". بينما هو يريه إياه ويخبره بتلك الكلمات وغيرها، ألقى عليه أحد أولئك المارقين حجرًا في ضربةٍ شديدةٍ ألقته على الأرض؛ ههنا اشتعل غونثالو دى ألكانتارا حنقًا، لدى رؤيته ذاك الفعل الكريه؛ فانقض على أولئك الملحدين كالليث، وتمكن – بصحبة صديقه المخلص كورنيخو – من قتل المسلم الذى قذف الحجر، وغيره ممن أرادوا الذود عنه. ورفع المسيح المصلوب من على الأرض، ووضعه بين يدى الراهب؛ وأقسم على ذاك الرمز المقدس أن يُمضى سيفه فى كل من يعترض طريقه من أولئك الملحدين خلال تلك الليلة. لم يمض القائد ألونسو دى كونتريراس Alonso de Contreras تلك الأوقات لاهيًا، حيث كان معسكرًا فى ذاك الموقع مع كتيبة من أهالى غرناطة؛ بيد أن الأحداث لم تتخذ مجرى سعيدًا معه – كما كان الحال مع باقى القادة – حيث أصابه نصل سهم أثناء دفاعه عن مدخل أحد الشوارع، وتوفى على أثره. وبالمثل فقد توفى كريستوبال ماركيث Cristóbal - Márquez أحد فرسان غونثالو دى ألكانتارا – وهو يقاتل فى بسالة.

كان رجالنا فى تلك الآونة فى مأزق، وأمسوا بحاجةٍ إلى دعم معنوى، يمكّنهم من تحمل استمرار حملة الأعداء عليهم. عندئذ بدأ الفرسان – الذين تأخروا فى الخروج من مقر إقامتهم – فى الدخول إلى الشوارع؛ لكنهم لم يستطيعوا اختراقها؛ لأن المسلمين كانوا فيها؛ فحاولوا بأقصى ما لديهم، إلى أن خرجوا إلى ساحة القتال وهم ينفخون الأبواق. كان ذلك الإنذار مهمًا، وأتى بنفع عظيم على رجالنا؛ لأن شابا –الذى كان فى الهوة الكائنة ما بين دوركال وبادول – حَسِبَ أن فرسان ماركيز مونديخار قد عبرت من الجهة الأخرى، أو أنهم كانوا يعسكرون فى دوركال؛ فشرع يصيح فى رجاله بصوت عال قائلاً: " إلى الجبل، إلى الجبل، فإن الخيول تغير علينا!" وهكذا عادوا

جميعًا على أعقابهم. بحلول ذاك الوقت كانت نوبات الحراسة بالمعسكر قد أحست بدوى طلقات البنادق فى دوركال، وقد تم تنبيه أنطونيو مورينو - الذى كان يتفقد الأمور - إلى ذلك؛ فقام بنقل تلك الأنباء إلى ماركيز مونديخار. حينها توقع الماركيز مسار الأمور، على ضوء الروايات التى كانت قد نُقلَت إليه، فأمر بحشد القوات على وجه السرعة؛ وبادر بإرسال غونثالو تشاكون فى المقدمة على رأس الرمّاحين التابعين لكتيبة كونت تينديّا - وكانوا تحت إمرته. ثم تبعه ذاك الأخير مع فرقة الفرسان الأخرى، عقب إصدار أوامره إلى كل من أنطونيو مورينو وإيرناندو دى أوروونيا - اللذان يترأسان قوات المشاة - لكى يسيرا دون إحداث أى صوت مع باقى الكتائب ليتوجها إلى دوركال.

إبان قدوم ماركيز مونديخار كان المسلمون قد غادروا المحل بالفعل، وكان رجالنا يشعرون بشىء من الخوف فى باحة الكنيسة؛ بينما بات البعض يتباهى بالنصر -ممن لا يستحقون المجد أو الثواب. قُتِل عشرون جنديًا فى تلك الليلة، وكان هناك العديد من الاصابات -وإن لم تحدث جميعها بأيدى العداء. حيث قام الجنود بجرح وقتل بعضهم بعضًا، أثناء خروجهم فى ظلمة الليل، وتقابلهم فى الطرقات؛ وكان أولئك ممن ظلوا دون هدى خارج المعسكر، حيث لم يرغبوا فى الانضمام إلى أى من الألوية. عندما حضر ماركيز مونديخار إلى دوركال، أثنى بشدة على صنيع القادة، وأمر بنقل المصابين إلى غرناطة لمعالجتهم. وقد مكث فى ذلك الموضع طيلة أربعة أيام، لانتظار القوات التى تفد إليه، والمؤن والذخيرة التى أرسلها كونت تينديّا من غرناطة؛ حيث تراءى له ألا يدخل إلى البشرات إلا وهو على أتم استعداد.

عاد القائد شابا إلى بوكيّرة شبه محطم؛ لأنه خسر مائتى مسلم. أما ابن أمية، الذى كان فى انتظاره لكى يُتبِع تلك الهجمة بحملات أكبر، فقد رغب فى قطع رأسه لمّا رآه على هذا النحو؛ بيد أن شابا اعتذر إليه، قائلاً إنه قد سحب القوات لأنه اعتقد أن فرسان ماركيز مونديخار قد عبروا الهوة من ناحيةٍ أخرى، وأنهم قد تمركزوا فى البقاع السهلية؛ وإن ما قام به، كان سيقدم على فعله أى رجل عاقل، إزاء سماعه لكل

تلك الأبواق من الجهة التي يوجد بها العدو. ولم يجانب المسلم الصواب كليًا' لأنه إضافةً إلى الأبواق المصاحبة لكتيبة غونثالو دى ألكانتارا - التي جاءت من مارخينا - كان ماركيز مونديخار قد أمر رجلين أن يتقدما ببوقين، وأن يقوما بنفخهما بمفردهما وهما في الطريق إلى دوركال، حتى يدرك رجالنا أن النجدة في الطريق إليهم. بما أن شابا لم يشاهد عبور أي خيول في ذاك المساء، فقد اعتقد أنها جميعًا موجودة في دوركال؛ وأراد أن يتراجع في الوقت الملائم قبل أن تهاجمه. لأن الثلاثة آلاف رجل الذين كانوا برفقته، كانوا غير أكفاء وغير مسلحين؛ فما كانوا يحملون سوى مقاذف لإلقاء الأحجار وبعض الرماح الصغيرة؛ ولو كان الفرسان قد باغتوهم في أراض سهلية، لم يكونوا ليتركوا أيًا منهم على قيد الحياة.

الفصل الثالث

كيف خرج أهالى ألمرية لاستطلاع قوات المسلمين الذين تمركزوا فى بنى حبوس، وكيف انقلبوا عليهم فيما بعد وألحقوا بهم الهزيمة.

حشد مسلمو المنطقة، التى تضم بين جنباتها مدينة ألمرية، صفوفهم فى عجالة لكى يتوجهوا لمحاصرتها. إلى جانب من ذكرنا من قبل أنهم تمركزوا فى بنى حبوس، فقد تجمع رجال آخرون فى معبر لا بالما la Palma – على مقربة من هناك – للانضمام إليهم. عندما أراد السيد غارثيا دى بيّاروّيل أن يقوم باستطلاع تلك الحشود، ومشاهدة موضع تجمعهم، والأماكن التى يمكن أن يقتحموا منها المدينة؛ خرج من ألمرية فى أربعين من الجنود الرماة، وثلاثين من الفرسان، بينما أبقى على المشاة فى الخلف. حتى يتسنى له القيام بتلك المهمة فى الأجواء المتأرجحة بين السلم والحرب، دون أن يشك المحيطون به فيما ينتويه؛ بعث فى البداية نائبًا فى مجلس بلدية تلك المدينة يدعى خوان دى بونتى Juan de Ponte، ليستفسر عن الداعى وراء اضطرابهم، ويستكشف هويتهم، والنسق الذى أقاموا عليه معسكرهم.

وصل النائب حتى مسافة قريبة للغاية من المسلمين، مما أتاح له سؤالهم عما أراد وهو مطمئن؛ لأنه ذهب بمفرده. عقب سماعهم لقوله، أجابوه فى خيلاء أن عليه العودة إلى قائده، وإبلاغه أنهم سينبؤنه بالأسباب التى يود معرفتها فى صباح اليوم التالى، بعد أن يقوموا برفع راياتهم فى ساحة ألمرية. فرد عليهم ونصحهم بأن يضعوا أسلحتهم، وأن يكتفوا بخدمتهم لجلالة الملك، وسيكون ذلك الأمر أكثر فائدة لهم؛ فبدأ

بعضهم في سبه، ونعته بالكلب اليهودي، قائلين إن مملكة غرناطة قد باتت بأسرها في قبضة المسلمين، ولم يعد بها سوى الرب ومحمد.

رجع خوان دي بونتي إلى القائد بذلك الرد، فعاد ذلك الأخير ليبعث رسالةً أخرى مع السيد ألونسو مارين Alonso Marín – المعلم بالمدرسة – الذي يكن له الموريسكيون في تلك البقاع وافر الاحترام؛ فقام باستدعاء بعض رجالات الموريسكيين البارزين، ورجاهم أن يتخلوا عن طريق الهلاك الذي يسلكونه. عندما أدرك أن إسدائه النصح لهم يعد مضيعةً للوقت، تراجع عن ذلك؛ أما السيد غارثيا دي بيّارّويل، فقد أخذ في الاقتراب منهم بقدر المستطاع على النحو المتبع في الحروب، ليستطلع قدرات رماتهم. لمّا كانوا لا يمتلكون سوى أسلحة نارية قديمة، وبندقتين أو ثلاث بنادق؛ فطن إلى أن بوسعه الإغارة عليهم قبل أن يفد إليهم المزيد من الرجال، خاصةً بعد أن استطلع موقع معسكرهم؛ وهو على الرغم من مناعته، فإن هيئة الحصن ذاته كانت تبدو في صالح رجالنا أكثر من الأعداء. فإذا كانت وعورة الدرب – الذي يتعين صعوده – تحول دون إمكانية الوصول إلى الأعداء دفعةً واحدةً، فهي نفسها تُعَد دفاعًا يعوق الأعداء عن الهبوط مجتمعين للهجوم على المسيحيين. كان هناك مدخلٌ آخر على الجهة اليمنى يمكن النفاذ إليهم عبره، وكان موجودًا عند رابية مجاورة لبني حبوس؛ وهو مكان تمتاز تضاريسه بالوعورة، ويصعب على الخيل أن تطأه، كما أنه ليس أمرًا سهلاً بالنسبة للراجلين.

وهكذا أسرّ القائد تلك الفكرة، وقال للمسلمين إنه ينتظرهم في المدينة؛ على الرغم من أنه كان يرى أنهم أناس وضيعة، ولن يفوا بعهدهم. وقد عاد في ذلك اليوم إلى المدينة، فألفاهم يترقبون وصوله وهم حريصون على معرفة ما فعل؛ لأن الجميع كان يخشى قدره بالفعل، على الرغم من قلة عدد الجنود الذين كانوا برفقته. إزاء معرفة السيد غارثيا بيّارّويل لتلك الحقيقة، صمم على مباغتة المسلمين بهجوم ليلي مفاجيء في الساعة الرابعة من فجر ذات الليلة. إلا أنه لم يجرؤ على إعلان ذلك – كما أكد لنا لاحقًا – لأنه كان يخشى معارضة القائمين على شئون القضاء وأعضاء مجلس البلدية؛

لما ينطوى عليه ذلك الأمر من تعريض المدينة للخطر فى حال حدوث أى مكروه. لكى يتمكن القائد من الخروج دون أن يفطنوا إلى وجهته، ترك جاسوساً بين الحقول خارج أسوار المدينة، بعد أن أمره أن يُشعل نيراناً ضخمةً لدى انتصاف الليل؛ وهكذا عندما تشاهد نوبات الحراسة بالمدينة النيران، ستقوم بحمل السلاح.

وقد أُتيحت له الفرصة، وتحقق له ما أراد؛ لأن المدينة بأسرها حملت السلاح لدى رؤيتها لتلك النيران؛ فهب هو أيضًا لتلبية الإنذار، وقام بتدعيم فرقة الحراسة. عقب انتصاف الليل قال السيد غارثيا إنه يرغب فى الخروج لمعرفة طبيعة ذاك الإنذار، وإذا ما كان هناك مسلمون يجوبون الحقول. فأمر الجنود بارتداء القمصان فوق ثيابهم، لكى يتمكنوا من تمييز بعضهم فى ظلام الليل؛ ثم غادر ألمرية قبيل بزوغ الصباح برفقة مائة وخمسة وأربعين رامياً مترجلين، وخمسة وثلاثين فارساً -يضمون عدداً من النبلاء والفرسان. وقد ظل لفترة يعبر أثناء مسيرته من جهةٍ إلى أخرى، لكى يتسنى له تجنب الحقول والأماكن التى اعتقد أن الأعداء قد يكون لهم جواسيس أو نوبات حراسة بها. ثم دنا من النهر، وعندما تراءى له أن الوقت قد حان، أوقف فرسه، وأشار لمن معه بالتوقف. لمّا تجمعوا سوياً، صارحهم بما ينتويه؛ وبالسبب الذى دعاه لكتمان السر؛ وبمدى أهمية إلحاق الهزيمة بالمسلمين الموجودين ببنى حبوس، قبل أن يلحق بهم أولئك المتمركزون فى مارشال دى لابالما وغيرهم – ولابد أن تكون أعدادهم غفيرة. وقال إنه يعرف أولئك الأعداء، وهم أناس غير مسلحين، وعددهم أقل مما يُخيَّل إليهم؛ أما الموضع الذى يشغلونه، فهو يضرهم أكثر مما ينفعهم؛ وإن جنوده لو قاموا بما يتعين عليهم فعله، فليتأكدوا أن النصر سيضحى حليفهم بمساعدة الرب، وأن ذلك هو الحل ومصدر الأمان لأهالى ألمرية؛ وأن المشاركين فى تلك الغارة سيظفرون بغنائم المسلمين مكافأة لهم على براعتهم.

كانت سعادة رجالنا غامرةً لدى معرفتهم بالهدف الذى جاءوا من أجله، وتحركوا جميعًا فرحين فى طريقهم إلى بنى حبوس؛ بعد أن بالغوا فى امتداح ذلك الرأى. وقد قبضوا فى الطريق على ثلاثة موريسكيين، عرفوا منهم كيف أن المسلمين ما زالوا

بالموضع الذى تركوهم به؛ وقد حملهم ذاك الأمر على حث الخطى، وعندما أمسوا على مقربة منهم تفرق الجمع إلى قسمين. فسلك خوليان دى بيريدا - Juli?n de Pereda حامل راية المشاة - طريقًا خفيًا على الجهة اليمنى، وذلك برفقة مائة من الرماة؛ وتمركز فى الربوة المتاخمة لبنى حبوس -حيث يعسكر الأعداء. وكان قد تلقى أمرًا بأن يلتحم معهم من الأمام، ثم يخرج مندفعًا بقوة، ليسلمهم إلى سانتياغو Santiago. على أن يقوم القائد الآخر، الذى يترأس باقى الجنود، بوضع الرماة فى الطليعة، والفرسان فى مؤخرة الركب؛ وقد أخذ يتقدم نحو الأعداء من الطريق المباشر، حتى تمكن من اكتشاف مقر إقامتهم بعد أن انبلج ضوء الفجر.

بحلول ذاك الوقت كانت دوريات المسلمين قد اكتشفت أشباح الجنود الذين يصحبون بيريدا؛ ولمّا كان الجنود يسيرون منحنين، ويلبسون القمصان؛ ومن جانب آخر لم يكن القوم يرتابون فى إغارة مسيحيين عليهم من تلك الناحية؛ فقد حسبوا أنهم أغنام يجلبها نفر من المسلمين لإطعام المعسكر؛ فدفعهم ذلك إلى الاطمئنان، إلى أن شاهدوا مقدم الخيول من الجهة الأخرى. عندئذ شرعوا فى الصياح، وقرع الطبول الصغيرة فى عجالة، وشهروا أسلحتهم جميعًا. إلا أنهم كانوا متحيرين - لكونهم أناس من غير خبرة- فلم يكونوا على دراية بما هو أفضل بالنسبة لهم: الخروج إلى القتال، أم اللجوء إلى الدفاع. أنذاك ترك السيد غارثيا دى بيّارويل الفرسان فى المؤخرة، ليكونوا بمثابة قذيفة منطلقة من بين الأشجار التى تصل إلى الربوة ذاتها، ولذا فقد كانت أغصان أشجارها تعيق أثر السهام والحجارة التى تُلقَى من عل. كما جعل المشاة أسفل الأشجار، ثم أخذ يعدل من وضعهم، حتى أودعهم أسفل بعض الحوائط الترابية، التى توجد بالقرب من السياج الذى يحيط بإحدى السواقى والصخور المدببة الكائنة فى تلك البقعة - حيث يمسى الطريق ضيقًا، فيحول أيضًا دون إمكانية نزول المسلمين دفعةً واحدةً لمباغتة القوات. فى بادىء الأمر، أظهر المسلمون حميةً وقاوموا بعض الشىء؛ ولكن عندما أبصروا فرقة الرماة الأخرى وراء ظهورهم، باتوا يظنون أن سائر الأعشاب، والأشجار، والأحجار تعج بالمسيحيين؛ فأغشى عليهم، كما يحدث مع الأشخاص الجبناء.

لم تنقص إبراهيم الغازى شجاعة عند تلك المرحلة، وكان وقتها يشغل منصب القائد والجندى فى أن واحد؛ فأخذ يقاتل بذاته، ويستحث الجنود بالترغيب والوعيد. حينما أدرك أن ذاك كله دونما جدوى، ترجل عن فرسه، واقتحم صفوف المسيحيين حاملاً رمحًا بيده؛ وقد قام بمآثر مجيدة، حتى إن البعض أداروا له ظهورهم. بيد أنه أثناء ملاحقته أحد الجنود الذين فروا من أمامه، اعترض طريقه جندى آخر أكثر حماسًا، فأطلق عليه نيران سلاحه وأرداه قتيلًا. بموت قائدهم، انتهى الأمر بالمسلمين القلائل الذين كانوا يقاتلون إلى الانهزام، فباتت ثقتهم فى أقدامهم تفوق ثوقهم بأيديهم؛ وقام رجالنا بمطاردتهم، ومات كل من استطاعوا اللحاق به -حيث لم يبق رجالنا على حياة أى منهم. لم يُؤسَر سوى سبعة مسلمين، كانوا قد مكثوا فى أحد الكهوف، وعثر عليهم بعض الجنود مختبئين.

اقتصرت الخسائر فى جانبنا على جرح جندى واحد، وقتل حصانين؛ أما المسلمون، فقد خسروا كل ألويتهم. وقد رجع السيد غارثيا دى بيّارّويل فى ذاك اليوم إلى مدينة ألمرية بتلك المحصلة، وبرأس إبراهيم الغازى - الذى خلفه فى موقعه دييغو بيريث الغورّى. وقد استقبله فى فرحة غامرةٍ كل من: الأسقف، وكافة القساوسة، والمواطنين -صغارًا وكبارًا. وحمدوا جميعًا الربَّ القادر على ذاك الحدث السعيد، الذى أطاح بآمال المسلمين، وفتح الطريق أمام العديد من الأحداث الجيدة. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما جرى، فقد أوفى إبراهيم الغازى بما وعد: لأن رأسه وألويته قد شوهدت فى ساحة ألمرية فى الساعة التى أخبر بها.

حينما بدا للسيد غارثيا أن بيريدا قد اتخذ موقعه، لم ينتظر أكثر من ذلك؛ وأمر الرماة أن يطلقوا نيران أسلحتهم - بناءً على أوامره - دفعةً تلو الأخرى. لم يكن الرماة قد أطلقوا سوى دفعتين من الذخيرة، وكانوا قد شرعوا فى توجيه الدفعة الثالثة، حينما بادر مائة جندى بالقيام بغارة شجاعة من جانبهم. ما إن سمع السيد غارثيا دى بيّارّويل دوى الأسلحة النارية، حتى حمل المشاة على الصعود أعلى الرابية، يتبعهم الفرسان؛ فعبروا جسرًا صغيرًا ضيقًا للغاية كان يعلو الساقية.

برز فى ذاك اليوم كل من السـيـد لويس دى روخـاس ناربايـيس Luis de Rojas Narváez- رئيس شمامسة تلك الكنيسة المقدسة-، وعالم اللاهوت دييغو مارين – المعلم بالكنيسة-، والقس باريديس Paredes، والسيد ألونسو حابس بينيغاس Alonso Habiz Venegas، وبيدرو مـــارتين دى ألدانا Pedro Martín de Aldana، وخـــوان دى أبونتى Juan de Aponte، وفرانثيسكو دى بيلبيس Francisco de Belvis، وكثيرين غيرهم من حملة السيوف والجنود المتطوعين. كان ذاك السيد المدعو ألونسو حابس بينيغاس نائبا فى مـجلس بلدية ألمرية، وأحـد مـواطنى المملكة؛ بيد أنه كـان مميـزًا عن الأهالى فى المعاملة والخلق، وكان الموريسكيون يكنون له بالغ الاحترام، لما كان معلومًا من نسبته إلى سلالة الملوك المسلمين لغرناطة. ورغبةً فى تنصيبه ملكًا أثناء تلك الثورة، كان ماتيو الرامى قد كاتبه حول ذلك الأمر، ورجاه من جانبه أن يقبل؛ فما كان منه إلا أن حمل الخطاب وتوجـه إلى مـبنى البلدية، فـقـرأه على نواب المجلس والقـائمين على شـئـون العدالة، وأخبرهم أن إغراء الملك أمرٌ ليس بالهين. ومنذ ذاك الحين عاش مريضًا على الدوام، لكنه ظل خادمًا وفيًا لجلالة الملك؛ وبات يسعى لتعزيز شهرته ببذل الجهد وطيب الخصال، بدلاً من الجشع والاعتماد على أسمـاء الطغاة. عُلِم فـيما بعد من الرجال السبعة الذين حملوا أسارى كافة تفاصيل محاولة احتلال غرناطة، وأمورٌ أخرى عديدة أثناء تعذيبهم؛ فى نهاية الأمـر، منحـهم نوينا الحبل الذى كانوا يبحـثـون عنه، وصدر الأمر بشنقهم على حافة أسوار المدينة. لنعد الآن إلى ماركيز مونديخار، التى تركناه فى مقر إقامته فى دوركال.

الفصل الرابع

كيف أخذ جيش ماركيز مونديخار فى التزايد، وكيف استسلم المسلمون فى لاس ألبونيويلاس

فى تلك الآونة بدأ أهالى مدن أندلوثيا فى غرناطة بحشد جموعهم، ووصل السيد رودريغو دى بيبيرو Rodrigo de Vivero – المأمور القضائى لكل من أبدة وبياسة – مع الأناس القادمين من تلك المدينتين، عندما كان ماركيز مونديخار بمقر إقامته فى دوركال. وقد قدمت من أبدة ثلاث مجموعات تضم ثلاثمائة من المشاة، ولواءان يضمان خمسة وسبعين فارسًا ؛ أما قوام القوات الآتية من بياسة، فكان تسعمائة وثمانين راجلاً – مقسمين على أربع فرق –، وأربعة ألوية بكل منها ثلاثون فارسًا. وكانوا جميعًا أناسًا بارعين ومتمرسين جيدًا على أمور القتال؛ وقد مثلوا بحق الصفوة وطبقة النبلاء فى كلا المدينتين، وعبروا عن قدرهم وبراعتهم الشخصية، التى أظهروها فى الحروب الخارجية والأهلية.

كان القادة كلهم من الفرسان وعمد القرى ونواب مجالس البلدية. كانت فرق مشاة أبدة تحت إمرة كل من: السيد أنطونيو بورثيل Antonio Porcel، والسيد غارثى فيرنانديث مانريكى Garcí Fernández Manrique، وفرانثيسكو دى مولينا Francisco de Molina؛ أما الفرسان فكان يقودهم السيد خيل دى بالنثيا Gil de Valencia، والسيد فرانثيسكو بيلا دى لوس كوبوس Francisco Vela de los Cobos . هذا وقد ترأس كتائب مشاة بياسة كل من: بدرو ميخيًا دى بينابيديس Pedro Mejía de Bena-vides، وخوان أوتشوا دى نابارّيتى Juan Ochoa de Navarrete، وأنطونيو فلوريس

دى بينابيـديس Antonio Flores de Benavides، وبالتـاسـار دى أراندا Baltasar de Aranda- الذى كان قائداً على فرقة الرماة التي يسمونها سانتياغو. أما الفرسان فكان على رأسهم خوان دى كارباخال Juan de Carvajal، ورودريغو دى مندوثا Rodrigo de Mendoza، وخوان غاليوتى Juan Galeote، ومارتين نوغيرا Martín Noguera، وأخيراً القائد دييغو باثكيث دى أكونيا Diego Vázquez de Acuña - الذى كان يحمل راية المدينة. لم يرجع إلى غرناطة -من بين كل أولئك الأشخاص الذين ذكرناهم - سوى كتائب فرسان بياسة الأربع، وفرقة أبدة التى كان يترأسها فرانثيسكو دى مولينا؛ لأن كونت تينديّا - الذى كان يقوم بمهام القائد العام بدلاً من والده الماركيز- أمرهم بالعودة لتولى حماية المدينة، إلى حين وصول قوات أخرى. أما القوات المتبقية، فقد توجهت جميعًا إلى المعسكر؛ وقد رافقها ما يربو على ستين فارسًا متطوعًا من الرجالات البارزين فى تلك المدن، كانوا قد قطعوا تلك الرحلة على نفقتهم الخاصة، حتى أمرهم ماركيز مونديخار بالعودة إلى ديارهم.

عندما رأى موريسكيو لاس ألبانيويلاس أن جيشنا آخذ فى الزيادة، وقد كانوا - من حسن الطالع - يخشون أن يمسوا أول من تصب تلك الجموع جام غضبها عليهم؛ ارتأوا أن يهدأوا من حفيظة ماركيز مونديخار ويتذللوا إليه. حمل تلك الرسالة الحاجب بارتولومى دى سانتا ماريا - الذى قلنا من قبل إنه كان ينصحهم بعدم القيام بالثورة - وقد كان مقبولاً لدى الماركيز، ومتفان فى خدمته؛ فأتى تنفيذاً لأوامره ليعالج معه ذاك الشأن. فتضرع إليه لكى يشمل أولئك الأهالى بالرعاية الملكية، ويدخلهم تحت كنفها، ويصفح عنهم؛ وأكد له أنهم إذا كانوا قد ثاروا، فهم لم يقوموا بذلك طواعيةً، بل أرغمهم على ذلك الثوار الجبليون والمسلمون الغرباء، وإنهم جميعًا نادمون، وصدورهم مثقلة بتلك الفعلة. ولمّا كان الماركيز يرغب فى تأمين ظهره، قبل التقدم إلى الأمام، فقد سره إجابتهم إلى مطلبهم؛ وأمره أن يخبرهم من جانبه أن يهدأوا، ويحاولوا الإبقاء على ولائهم - لدى عودتهم إلى منازلهم - وألا يقبلوا بوجود الأشرار بينهم، وعليهم أن ينبهوه إلى كل ما يدور هناك؛ لأنهم إذا ما قاموا بما يتعين عليهم بوصفهم رعايا

أوفيـاء لجلالة الملك، فـإنه بدوره سيقف بجوارهم ولن يسـمح أن يصـيبـهم أى مكروه. رجع المسلمون إلى ديارهـم فى أعقاب مـا دار، وأرسل الحاجب فى طلب كاهن الموضع -وكـان مـا زال فى بادول - لكى يعـود إلى كنيسـتـه، ويقيـم شعـائر القداس. بيـد أن الرجل لـم يمض وقـتًـا طويلاً بين تلك الأناس الدنيـئـة، التى كـانت قـد بدأت فى تأنيب أنفسها، خاصةً بعد أن وبخهم على ما اقترفته أيديهم فى الأشياء المقدسة.

فى نهاية الأمر أراد الكاهن أن يعود إلى بادول، حيث لم يكن يشعـر بالطمـأنينة، فمنحه الحاجب حـاشيةً من الأصدقـاء لترافقه إلى هناك. لطالما أحسن ذاك المورسكى التصـرف تجـاه المسـيـحيين؛ وعندمـا قـدم المقـاتلون فـيمـا بعـد إلى بـادول، قـام هـو والموريسكيون المقيمـون فى تلك القرية بنقل عشـرين حمـلاً من الدقيق المعجون فى كل أسبوع، على سبيل المساهمة فى إطعام الجنود. كما قدم الرجل تنبيهاتٍ مهمة وحقيقية حول ما يعمله المسلمون؛ بيد أنه لم يتمكن قط من المحافظة على ولاء ذاك الشعب. وهو لم يكن يسـتحق الميتة التى منى بـها لاحقًا، أو وقـوع أسـرته فى الأسـر[١]. وقد تسـبب جنودنا الحـانقـون فى ذاك الأمـر؛ لأنهـم لم يحـسنوا تقـدير تلك الجـهـود، وذلك على النحو الذى سيرد ذكره فيمـا بعد أثناء تناولنا للدمـار الذى أحدثه السيد أنطونيو دى لونا Antonio de Luna فى ذاك المكان. أمـا الآن فـسـوف نتطرق إلى مـا كـان يقـوم بـه ماركيز بلش فى تلك الآونة.

(١) مع تبنى مارمول وجهة نظر السلطات الرسمية، فإنه لا يستطيع تجاهل أخطاء وقع فيها المسيحيون (المراجع).

الفصل الخامس

كيف قام ماركيز بلش - بناءً على التحذيرات التى وصلت إليه - بحشد جموع من الناس، واقتحام مملكة غرناطة لقهر الثوار

كان الإنذار الذى أرسله سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا، إلى جانب الخطر الشديد والحاجة الملحة اللذين تمثلا فى مدن ألمرية وبسطة ووادى آش - وكانت جميعها تطالب بإغاثتها - الداعى وراء تعجيل ماركيز بلش بالخروج؛ من دون انتظار وصول أمر بذلك من جلالة الملك يتيح له الدخول إلى مملكة غرناطة بجيش مكتمل الصفوف. فلم يلق بالاً إلى ما ينص عليه البند التاسع عشر من القاعدة الثالثة من القانون الثانى Segunda Partida، والذى ينص على أنه يتعين على الرعايا الانصياع إلى ملوكهم إبان قيام الثورات؛ كما أراد أن يثبت مدى حكمة من قام باختياره، ووضع ثقته فيه لتولى مهمة على ذاك القدر من الخطورة والثقل. عندما أدرك الماركيز أن المواطنين العاديين الذين معه قليلى العدد، وأنه لن يتسنى له إحداث تأثير كبير من خلالهم - على ضوء المنحنى الذى تسلكه الأحداث - وأن جمع الرجال من مملكة مرسية أمر يستلزم وقتًا؛ بعث نداءً عاجلاً إلى أصدقائه ورعاياه، وأنذر بعض القرى المتاخمة التى تقع بمحاذاته ليمدوه بالنجدة. فأرسل أخاه السيد خوان فاخاردو Juan Fajardo إلى لورقة Lorca، وريثما جاء ذاك الأخير بأهالى تلك المدينة - مغامراً بممتلكاته الخاصة، لأنه لم يكن لديه أوامر بالانفاق من أموال جلالة الملك - قام الماركيز بالتزود بالمؤونة والذخيرة و وسائر الأمور الضرورية.

وقد بادر الأشخاص بالوفود إليه على وجه السرعة، حتى إنه بحلول يوم الثانى من شهر يناير كان لدى الماركيز فى بلدته -بلش البلانكو- ألفان وخمسمائة راجل وثلاثمائة فارس. وقد قدم من لورقة ألف وخمسمائة من رجال المشاة، ومائة فارس، وكانت صفوفهم منتظمة للغاية -كما هو الحال دائمًا مع أهالى تلك البلدة. كان قادة تلك الحشود هم: خوان ماتيو دى غيبارا Juan Mateo de Guevara، وبدرو إليثيس Pedro Helices، وألونسو ديل كاستيّو Alonso del Castillo، ومارتين دى لوريتا Martín de Lorita، ولويس بونثى Luis Ponce. وقد أتى من كاراباكا Caravaca القادة أندريس دى مورا Andrés de Mora، وإيرناندو دى مورا Hernando de Mora، وبدرو مارتينيث Pedro Martínez على رأس ثلاثمائة راجل وعشرين فارسا؛ كما جاء خوان لوبيث Juan López من موراتايّا Moratalla بصحبة مائتين من رجال المشاة وثلاثين فرسًا؛ وكذلك فقد حضر من هللين Hellín بابلو بينيرو Pablo Pinero ومعه مائة وخمسين من المشاة وخمسة عشر فرسًا. إضافةً إلى ذلك فقد قدم فرانثيسكو فاخاردو Francisco Fajardo من ثيخين Zehegín برفقة مائتين وخمسون راجلاً وعشرين فرسًا، أما مولا Mula فقد جاء منها دييغو ميلغاريخو Diego Melgarejo بصحبه مائتان من المشاة.

خرج الماركيز على رأس كل أولئك الأناس المنتقين والمتطوعين، إلى جانب القوات التى خرجت من كل من: بلش البلانكو، وبلش الروبيو، وليبريّا Librilla، والحامة تحت إمرة القائد إيرنانو دى ليون Hernando de León؛ وكان ذلك فى اليوم الرابع من شهر يناير لعام ١٥٦٩، فى أعقاب تنبيهه لباقى مواضع تلك المملكة من أجل اللحاق به. وقد توجه إلى دياره فى مارخين Margen ليقضى معسكره هناك تلك الليلة، وذلك فى مكان يسمى بوكا أوريا Boca Oria. وقد لحقه فى ذلك اليوم فى الطريق خايمى برادو Jaime Prado، وفرسان آخرون من أوريولا - المدينة الكائنة بمملكة بلنسية - وكانوا قد قدموا للمشاركة معه فى تلك الحملة. وقد وصل إلى هناك بريد من سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، يحوى رسائل يخبر فيها الرئيس الماركيز أن ما قام به كان

احترازًا جيدًا للغاية؛ وأنه سيحاول حشد أكبر عدد ممكن من الرجال؛ وسيبذل جهده لكي يكون ذاك الأمر على نفقة الأهالي، كما جرى الأمر في بقاع أندلوثيا، ريثما يصل القرار الذي يُنتَظَر صدوره من جلالة الملك. بيد أن ماركيث بلش -بعد أن فطن إلى إنه لن يمكن إعالة الجموع على ذاك النهج، وأنه سينتهي به الأمر إلى الإنفاق من أمواله الخاصة- تعلل بالإنذارات التي ترد إليه كل ساعة؛ وظن أنه لن يقدّم لجلالة الملك في ظل الظروف الحالية، خدمةً أفضل من سد الحاجة الملحة. فلم ينتظر وصول أي أوامر أخرى، وخرج في اليوم التالي عازمًا على إنقاذ مدينة ألمرية وتدعيمها؛ لأنه لا يعرف الطريق المؤدية إلى بني حبوس؛ بيد أن هناك من زعم أنه بادر بالخروج في عجالة، ليكون قد أضحى داخل مملكة غرناطة وقت صدور القرار.

عندما وردت إليه لاحقًا أنباء حول الدمار الذي يحدثه أولئك المسلمون، وعقب أن ألفى المدينة بمنأى عن المخاطر، أراد أن يُغير على قلعة خيرغال. فسلك أعالي ذاك الوادي، وتوجه ليبيت تلك الليلة في أولولا، وهي إحدى قرى نهر المنصورة. وقد وصل إلى المعسكر السيد خوان إنريكيث Juan Enríquez قادمًا من بسطة على رأس مائة رجل – ما بين فارس وراجل. في صبيحة اليوم التالي غادر القائد مقر إقامته ذاك، وعبر أعلى جبل فيلابريس، في أجواء قارسة البرودة؛ انهمرت خلالها الأمطار وهبت رياح الشمال الباردة، التي يخترق صقيعها عظام الرجال والخيول؛ وسار مسافة سبعة فراسخ في طرق الرعاة التي تتخلل جبالاً شديدة الوعورة والانحدار، حتى أمّ مدينة تابيرناس. وقد مكث بها حتى يوم الثالث عشر من شهر يناير لكي ينال الجنود قسطًا من الراحة؛ كما أنه كان ينتظر أوامر جلالة الملك، والقوات التي كان يتعين قدومها من مملكة مرسية – طبقًا لما أخبرنا[٢] به. كان بقاؤه في ذاك الموضع من الأهمية بمكان، لأن مسلمي المقاطعة لم يجرؤوا على القيام بالثورة أثناء وجوده، كما حدث لاحقًا.

(٢) مرة أخرى يقول مارمول إنه يعتمد على شهود عيان. (المراجع)

لم يلق دخول ماركيز بلش إلى مملكة غرناطة الاستحسان، خاصةً لدى من لا يكنون له مودة كبيرة؛ على الرغم من أن العامة، ومن كان يسوؤهم وجود المسلمين، سروا بها. حيث ظنوا أنه سيبيدهم جميعًا بحد سيفه، ولن يقتصر على إخضاع الأماكن الثائرة مثل ماركيز مونديخار. من هنا ظهرت آراء مختلفة بين النبلاء، فصنفه البعض على أنه امرؤ سيئ [٢]، بينما عدّه آخرون يضطلع بخدمة جليلة. وقد دامت تلك المنافسة طيلة فترة الحرب: فكان كلما يفرح أحد الفريقين، يحزن الآخر؛ والعكس صحيح، وذلك وفقًا لما يقدم عليه هذان التياران، اللذان يغاليان أو ينتقصان من قدر أفعاله كما هو الحال دائمًا عندما يسيطر الحقد أو البغضاء على الأجواء. وأسوأ ما في الأمر كان وصول تلك الروايات شديدة التباين إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه الملكي، وهو ما أسفر عن تضارب في القرارات التي كان يتوجب اتخاذها.

(٢) كان موقف النبلاء ضد إلحاق الضرر بالموريسكيين، فقد كانوا يمثلون بالنسبة لهم أيدي عاملة رخيصة. (المراجع).

الفصل السادس

كيف حاصر مسلمو سند وادى آش حصن قلهرة، وإنقاذه على يد بدرو أرياس دى أبِلا.

عقب تسليم خوان دى لا تورّى من كان بحصن قلهرة من الموريسكيات إلى أزواجهن، وآبائهن، وإخوانهن - كما أسلفنا -؛ تجمّع فى يوم الملوك[4] العديد من الثوار الجبليين ومسلمو البشرات مع نظرائهم فى سند وادى آش، وهبطوا من الجبل، فى ستة وعشرين لواءً مشهرًا وعدد كبير من الرجال المسلحين بالبنادق، وهم يطلقون صيحات الحرب. وقد اقتحموا قلهرة، وأطلقوا سراح الثوار الجبليين الذين كانوا أسارى لدى القائد مولينا دى موسكيرا، دون أن يلقوا أى مقاومة؛ ثم قاموا بمحاصرة الحصن مع ما يربو على ثلاثة آلاف رجل. وقد بادروا بالهجوم على الحصن، دون أن يضيعوا وقتًا، فأحرزوا تقدمًا كبيرًا؛ حتى أنهم ثقبوا بعض حوائط السور، ونفذوا عبرها فى حماسة شديدة؛ فاستولوا على المواشى والأمتعة التى كانت به، دون أن يتمكن المسيحيون من التصدى لهم. دام ذاك الحصار ثلاثة أيام استمر فيها القتال بالأسلحة والبنادق على الدوام، وإن كان عن بعد.

فى تلك الآونة أمر القائد خوان دى تورّى بإرسال إشارات دخانية خلال النهار، وإشعال نيران ضخمة أثناء الليل. كما أطلق نيران المدفعية، حتى يتسنى لمدينة وادى

(٤) هو احتفال أصله وثني ويتعلق بالملوك السحرة، ويوافق ٦ يناير من كل عام. (المراجع).

أش – الكائنة على ضفاف النهر، والتى تبعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب – إغاثته. فهمت المدينة ما يجرى، وحشدت صفوفها لتدبر أمر النجدة. على الرغم من تباين الآراء بين أعضاء المجلس البلدى، فقد استند المأمور القضائى بدرو أرياس دى أبلا إلى موقف ذوى الحمية الشديدة. حيث غادر وادى آش فى ثامن أيام شهريناير ، ليصل إلى قلهرة فى ذات اليوم، وذلك على رأس من استطاع تجميعهم، وكانوا ثلاثمائة راجل وستين فارسًا؛ بالإضافة إلى الفرسان والمواطنين من النبلاء، الذين طالما ازدانت بهم تلك المدينة، والذين تسلحوا بالهمة أكثر من القوة، نظرًا لضآلة عددهم مقارنةً بأعداد الأعداء.

من ناحية أخرى، لمَّا أبصر المسلمون مقدم قوات النجدة، تركوا منازلهم وشكلوا جميعًا حشدًا كبيرًا، وخرجوا لملاقاتهم عند حافة الربوة الذى يقع عنده الحصن، لكى يقطعوا على رجالنا مدخل الطريق. وقد تراءى لهم أنه موضع آمن لكونه شديد الوعورة ويصعب على الخيول ارتياده، بيد أن الأمر لم يكن كذلك، حيث ألفوا وراء ظهورهم أحد أبراج الحصن الكبيرة، الذى اكتُشِفَ وجودهم منه وأُطلِقت عليهم نيران البنادق، كما قُذِفوا بعدد من المدافع الصغيرة. وقد مكثوا هناك فى انتظار مجىء القوات من المدينة، وأثناء سجال الرماة مع طليعة المقاتلين، قام من كُشِفت ظهورهم جراء نيران البرج بهجر مواقعهم. وهكذا اختل نظام هؤلاء وأولئك، نظرًا لعدم خبرتهم وقلة تمرسهم، ولاذوا جميعًا بالفرار فى فوضى كبيرة صوب الجبل، حيث لن يتسنى للخيول اللحاق بهم. وقد بادر فوج منهم باقتحام القرية، فأضرموا النيران فى الدور، وأحرقوا الكنيسة؛ بينما التجأ فوج آخر إلى أحد الجبال المقابلة للحصن من ناحية البشرات، حيث أضحوا بمأمن. لكنهم تكبدوا خسائر كبيرة، لأن الفرسان وعددًا من الجنود الذين تمكنوا من ملاحقتهم، استطاعوا القضاء على مائة وخمسين مسلمًا، وجرح أعداد تفوق ذلك الرقم بكثير. أسفر ذاك الانتصار عن فك الحصار عن الحصن، وعودة بدرو أرياس دى أبيلا فرحًا وظافرًا إلى وادى آش، حيث استُقبِل بحفاوة كبيرة. وكان قد أبقى القائد ميّادو Mellado برفقة مجموعة من الرماة وقدر من الذخيرة داخل الحصن، تحسبًا لمعاودة المسلمين محاصرته.

الفصل السابع

يتناول الإجراءات التى اتخذها كونت تينديًا لتوفير المؤونة اللازمة لجيش والده الماركيز.

عقب مغادرة ماركيز مونديخار لغرناطة، أرسل كونت تينديًا - المكلف بالتزود بشتى الأمور اللازمة للقتال - إلى القرى التى تدخل فى إطار تلك المدينة، مطالبًا إياها إمداده بخمسمائة مقاتل؛ وقد قام بوضعهم فى حصن الحمراء، نظرًا لنقص أعداد الرجال الموجودين بداخله. كما أنه قام بأمرين مهمين وضروريين للغاية للتأكد من تزويد المعسكر بما يكفيه من مؤونة، فضلاً عما كان بحوزة الحراس النظاميين. حيث قسّم مواضع الغوطة إلى سبع مناطق، وأمر كل واحدة أن تقوم بإعداد عشرة آلاف رغيف مخبوز من النوع الذى يزن رطلين من أجل المعسكر، وذلك فى اليوم المخصص لها؛ على أن تبيع كل منها ذاك القدر بالمقابل الذى يتراءى لها، دون أن يحدد الكونت سعرًا محددًا. وهكذا سيضحى فى المعسكر عشرة آلاف رغيف بشكل يومى، وهو ما سيفى باحتياجاته على نحو كاف. أما الإجراء الثانى فكان استدعاؤه كافة بائعى التجزئة بالمدينة، ممن يتاجرون فى المواد الغذائية، فجمع ما يربو على مائة، وأمرهم أن يحمل كل منهم إلى المعسكر - تبعًا للسلعة التى يتاجر فيها - شحم الخنزير، والجبن، والسمك، و النبيذ، والخضروات، وغيرها من المواد الغذائية. ومن أجل أن تطيب نفوسهم إلى القيام بذلك، فقد أمر بإقراضهم ستة آلاف دوقية لمدة أربعة شهور، وسمح لهم أن يشتروا بها ما يحلو لهم من بضائع، دون أن يتعرضوا لمغبة التهريب؛ حيث كان قد صدر قرارٌ بأن كل من يُحضِر مسروقات من المعسكر تُؤخَذ منه، ويُعَاقَب . وقد أسهمت تلك الإجراءات ، جنبًا إلى جنب مع المؤونة التى عثر عليها الجنود فى الأماكن التى يرتادونها، فى تأمين المؤن التى تسد حاجة المعسكر.

الفصل الثامن

يتناول كيفية صدور الأوامر بإيواء المحاربين الوافدين إلى غرناطة فى بيوت الموريسكيين، والمشاعر التى انتابتهم حيال ذلك الأمر.

كانت أعداد الرجال الذين يفدون تباعًا من مدن وقرى أندلوثيا - التى كان ماركيز مونديخار قد قام بتحذيرها - آخذة فى التزايد، وغصت مدينة غرناطة بجموع الجنود والفرسان غير النظاميين، الذين قدموا للمشاركة فى الحملة على نفقتهم الخاصة. فلم يكن أمام كونت تينديًا، الحريص على القيام بما أوكل إليه، خيار أفضل من أجل إلهائهم وإسعادهم، سوى أن يأمر بإيوائهم فى منازل المسلمين ليبيتوا ويطعموا بها طيلة فترة بقائهم، أما الموريسكيون الذين لا يريدون أن يظل الجنود فى بيوتهم فعليهم تقديم مساهماتهم نقدًا؛ وقد أمر مأمورى الصرف المصاحبين للحملة أن يحفظوا ما يرد إليهم من أموال لاستخدامها فى وقت آخر، حيث لم يستبق بالمدينة سوى ما يلزم لتأمينها، وقام لاحقًا بإرسال ما تبقى من أموال إلى معسكر ماركيز مونديخار.

كانت تلك الترتيبات الخاصة بالإعاشة، التى بدأت فى تاسع أيام شهر يناير، هى جل ما يخشاه الموريسكيون. وكانت تعد أشد الإجراءات التى مورست تجاههم تعسفًا وجورًا[٥]، وقد أسفوا لذلك الأمر أيما أسف، ولم ينبع ضيقهم من التكلفة التى

(٥) هذه من المرات القليلة التى يتحدث فيها مارمول عن ظلم وقع على الموريسكيين. (المراجع).

سيتحملوها، بقدر ما استثار ذلك غيرتهم الشديدة على نسائهم وبناتهم، وحرصهم على متعتهم الخاصة. لمّا استشعر القوم تلك المأساة فى ديارهم، توجه كبار رجالات البيّازين برفقة نائبهم العمومى إلى كونت تينديًا عينه، فلما رأوا قلة حيلته إزاء الأمر، قصدوا سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، وأخذوا يصيغون أسبابًا كثيرة ويوضحون له مساوىء استمرار تلك الإعاشة، قائلين إنهم سيواصلون القيام بنوبات الحراسة التى تكلفوا بها فى البيّازين، وإذا لزم الأمر فإنهم يزيدون نوبات أخرى على نفقتهم، على أن يقيم المحاربون الآخرون القادمون من خارج المدينة فى الكنائس والمنازل المهجورة - كما فعل ماركيز مونديخار من قبل - أما الموريسكيون فسيمدونهم من دوائرهم بالأسرة والأطعمة. لما تراءى لسيادة الرئيس إمكانية القيام بما يقولون، أرسل خورخى دى بايثا إلى كونت تينديًا ليخبره بما ألقاه الموريسكيون على مسامعه، وما اقترحوه فى شأن إعاشة المقاتلين مستقبلاً لأن الحرب قد طال أمدها(٦).

حمل خورخى دى بايثا تلك الرسالة إلى كونت تينديًا، وكان يرافقه أولئك الموريسكيون، الذين أوضحوا له بعبارات كسيرة مدى الضرر الذى لحق بهم، وأضافوا إلى ذلك ما قد يطرأ لاحقًا من مضار جديدة، كتناقص شعور نسائهم وبناتهم بالأمان، وخشيتهم على أنفسهم وأملاكهم، إذا ما قام أحد الجنود بإشهار الأسلحة ليلاً بسوء نية، ليسرق منازلهم؛ وأن كل تلك الأمور ستتوقف عندما تصدر الأوامر بإعاشتهم على النحو الذى كان متبعًا من قبل. بيد أن كونت يتنديًا أجابهم بأنه لا بد من إقامة المحاربين فى منازل آهلة بالسكان وليست مهجورة، وأنه يتعين عليهم إرضاءهم وإحسان معاملتهم، لكى لا يرحلوا. وأنه من اللازم تزويدهم بالمأوى

(٦) من المهم أن نذكر هنا أن عمد القرى -فى ذلك العصر- كانوا ملزمين بإعاشة القوات التى تمر بمناطقهم، وقد تناول الأدب الإسبانى هذا الموضوع خاصةً فى مسرحية "عمدة ثالاميا" لكل من لوبى دى بيغا وكالديرون دى لاباركا. (المراجع).

والاحتياجات؛ لأنه ما من سبيل لاعاشتهم سوى بتلك الطريقة. وأن تحقيق مصلحة جلالة الملك تستدعى ألا تكون للموريسكيين حرية استضافة مسلمين غرباء لديهم، أو عقد اجتماعات سرية فى منازلهم؛ بل إنها تقتضى وجود الجنود معهم على الدوام، لكى يتسنى لهم رؤية وإدراك ما يقوله ويفعله عشرة آلاف موريسكى موجودون بالبيّازين، وقادرون على حمل السلاح. وأضاف إنه إذا ما أحدث الجنود أية قلاقل، فإنه فى تلك الحالة سيعالج ذاك الوضع بمعاقبة المذنبين(٧). ثم صَرَفَهم من عنده حزانى ومستائين للغاية بعد أن أعطاهم هذا الجواب. ومنذ ذلك الوقت أقام المحاربون جميعًا فى بيوت الموريسكيين، ولم يتعرضوا لعقوبات شديدة، فأدى ذلك الوضع إلى جشع الجنود وانتهاكهم للشرف.

استمرت ترتيبات الإعاشة فى المضى قدمًا، حتى أن الكثير من الموريسكيين الحانقين والمستنفَذين ندموا على عدم حملهم للسلاح حينما دعاهم ابن فرج لذلك. كما أرسل آخرون إلى ابن أمية يخبرونه أنه إذا ما اقترب من المنطقة الجبلية برفقة بعض الرجال، أثناء عدم وجود ماركيز مونديخار فى غرناطة، فإنهم سينضمون إليه. فى تلك الآونة، استخدم كونت تينديّا امتيازات منصبه كقائد عام، حينما أدرك الحاجة لوجود من يحفظ النظام، فنصّب سبعة قادة لتلك المهمة، ومنحهم الصلاحيات التى تخول لهم القيام بها. فرسّم لورينثو أبيلا مفوضًا وقائدا للجند، بعد أن شفى من الاصابات التى منى بها فى دوركال، وأمره أن يقيم فى البيّازين، ليسيطر على القلاقل التى يثيرها الجنود هناك. أعقب ذلك بفترة قصيرة صدور أوامر من جلالة الملك لتوجه كل من السيد أنطونيو دى لونا - سيد فوينتيدوينيا Fuentidueña -، والسيد خوان دو مندوثا سارمينتو Juan de Mendoza Sarmiento إلى غرناطة لتولى شئون الحرب بها. وقد

(٧) كان من الشائع عدم احترام الجنود لعادات البيوت التى تؤويهم وكان أهل القرى - مسيحيون ومسلمون - يتضررون من تلك التصرفات، بل إن بعضهم كان ينتقم لشرفه بنفسه. مسرحية "عمدة ثالابيا" تتناول هذا الموضوع. (المراجع).

قام كونت تينديّا بتولية السيد أنطونيو دى لونا شؤون المحاربين الراجلين والفرسان المقيمين فى بقاع الغوطة؛ أما السيد خوان دى مندوثا، فقد أبقى عليه فى غرناطة، إلى أن صدرت إليه الأوامر لاحقًا لكى ينضم إلى المعسكر، عقب عودته إلى أورخيبا، وهو ما سيرد ذكره فى موضع لاحق.

الفصل التاسع

يتناول كيفية احتلال جيشنا لمعبر تابلاتى

بعد أن توفُّر لماركيز مونديخار عدد كاف من الرجال يمكّنه من التقدم إلى البشرات، انطلق من دوركال فى صبيحة يوم الأحد الموافق التاسع من شهر يناير، يرافقه الجيش بأكمله فى طريقه إلى موضع تابلاتى، عقب انتظام صفوفه وأركانه - وكان الثوار قد جمعوا صفوفهم فى ذاك الموضع - ظنًا من الماركيز فى إمكانية حماية المعبر الموجود به. وكان قد احتشد هناك ثلاثة آلاف وخمسمائة موريسكى تحت إمرة قادتهم: خيرونثيّو Gironcillo، والناقوس Anacoz، والرانداتى el Randati، وغيرهم من الأشرار ومثيرى الفتنة، الذين اكتسبوا احترام أولئك الرجال، لا لتمرسهم فى فنون القتال أو لشخصياتهم ذات النفوذ الطاغى، ولكن لما اقترفوه من فظائع وانتهاك لحرمة المقدسات على مدار تلك الثورة.

أقام ماركيز مونديخار ليلته تلك فى موضع التشيتى، الذى يقع على مسافة فرسخين من دوركال، وكان مهجورًا آنذاك؛ إلا أن المعسكر بات على أهبة الاستعداد، لكون المحل معرضًا لوقوع أية أحداث. استكمل الماركيز مسيرته صوب تابلاتى فى الصباح الباكر ليوم الاثنين، وهو يعلم أن الأعداء فى انتظاره. كانت تلك القرية صغيرة، وليس بها سوى مائة بيت، لكنها اشتهرت فى تلك الآونة نظرًا للهزيمة التى منى بها السيد دييغو دى كيسادا هناك، وكذلك لوجود المعبر المؤدى إلى الجسر، الذى يمر أعلى هوة سحيقة ووعرة. وليس للقرية مدخل آخر من جهة أخرى إلا على مسافة أربعة فراسخ، عبر قنطرة تقع عند قرية الساقية على نهر ميليخيش Melejix.

كان المسلمون قد خربوا بنية الجسر، بما لا يدع مجالاً لعبور خيول أو مشاةٍ إلا بصعوبة بالغة ومخاطرة شديدة. حيث لم يبقوا إلا على عدد من الألواح الخشبية القديمة على أحد الجوانب، ويبدو أنها كانت سقالة البناء فيما قبل، وكان فوقها ممر ضيق للغاية، كان يتسع بالكاد لعبور رجل بمفرده. وحتى ذاك الممر الضيق الذى تركوه لينفعهم ويمكنهم من قضاء حاجتهم والعبور إلى الناحية الأخرى، قاموا بتخريب دعائمه وإخفائها على النحو الذى يهوى به إلى الأسفل إذا ما حُمّل عليه أكثر من شخص واحد. وكانت الهوة سحيقة جداً فى تلك المنطقة، حتى أن النظر إليها من أعلى كان يُفقِد المرء توازنه ويُذهِب بصره.

كان ماركيز مونديخار قد احتاط جيداً لتلك المهمة، على الرغم من عدم معرفته بتخريب الجسر. فحمل رجاله على هيئة صفوف: يتواجد الرجال المسلحون بالبنادق على أطرافها، والجنود الكشّافون فى المقدمة لاستطلاع الميدان. وصلت طلائع الجيش بذاك التشكيل إلى المشارف المطلة على ذاك المحل والجسر الكائن به دون أن تبلغه، حيث اكتشفوا وجود المسلمين على الجهة الأخرى، وكثرة الرايات البيضاء والملونة التى تبرز ما بين السهول، على ما يبدو رغبةً فى الدفاع عن المعبر. فأمر الماركيز بتحرك جموع المسلحين الموجودين على أطراف السرية إلى الطليعة، وتقدم بها إلى الأمام، مخلفًا الفرسان وراءه فى الميدان، لكى يستنفر وجود القائد العام الحمية أكثر فى نفوس الجنود المتحمسين.

مع وصول القائد إلى موضع الجسر والهوة، شرع الرماة من كلا الجانبين فى التراشق. لم يقو المسلمون على تحمل سيول قذائفنا العارمة، ففزعوا؛ لأنهم حسبوا أنه ما من رجل جسور سوف يجرؤ على التقدم لعبور الجسر المهدم، الذى كانوا يُعِدّونه دفاعًا كافيًا لصد قواتنا. مع ذلك فقد قام راهب مبارك من أتباع مذهب الأب فرانثيسكو الساروفيمى، يدعى القس كريستوبال دى مولينا Crist?bal de Molina، بالمضى قدمًا صوب المعبر الخطير، حاملاً صليبًا فى يده اليسرى، وشاهرًا سيفه فى اليد اليمنى، وملتفًا برداء الرهبان حول خاصرته؛ وقد حمل ترسًا دائريًا على ظهره،

وهو يلهج مبتهلاً باسم المسيح المجيد. اعتلى المعبر فى تصميم، وأخذ يسلكه - فى جهد بالغ محفوف بالمخاطر - مرتكزًا فى بعض الأحيان على أطراف الألواح الخشبية أو دعامات الهيكل الخشبى، وفى أحايين أخرى على الأحجار والكتل الترابية التى تتهاوى تحت أقدامه، حتى عبر إلى جهة الأعداء، الذين كانوا يراقبون عن كثب ليشاهدون لحظة سقوطه. وقد تبعه فيما بعد جنديان جسوران. إلا أن أحدهما صادف حادثًا أليمًا، حيث انهار جزء من الأرض وأحد الألواح الخشببية تحت قدميه، فهوى إلى الأسفل وأخذ يدور فى الهواء أثناء سقوطه، حتى وصل إلى القاع بعد أن كان قد تقطع إربًا. أما الآخر فقد عبر، ولحقه رجال كثيرون، كل هذا دون أن يتوقف أيٌ من رماتنا أو المسلمون - الذين أسندوا أسلحتهم إلى ربوة قريبة أعلى الجسر - عن التراشق بالنيران. وفى النهاية حمل جنودنا على المسلمين، على نحو أجبرهم على التراجع أمام السيل العارم الذى صبه عليهم من يدركون أن النصر حليفهم.

فى أعقاب الظفر بالجسر والموقع بعد تكبد جيشنا لخسائر طفيفة، وكثرة الخسائر فى جانب المسلمين، جلب الجنود ألواحًا خشبية وأبوابًا، وشرعوا يصلّحون الجسر بالرماح الطويلة والأغصان والتربة، حتى تمكنت فى ذاك اليوم المركبات والخيول والمدفعية من عبوره؛ وقضى الجيش ليلته تلك فى الموقع. كان الرماة قد صبوا جام غضبهم فى ذاك اليوم على الأعداء، الذين بادروا بالهرب، حتى خلّفوا ما يربو على مائة وخمسين قتيلًا، وظلوا فى أثرهم إلى أن وصلوا إلى النهر الكائن فى الجهة الأخرى من لانخارون. وهنالك أدركوا أن من يلاحقونهم قليلو العدد، فانقلبوا عليهم وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، وضيقوا الخناق عليهم، على النحو الذى دفعهم للجوء إلى المنازل الموجودة فى القرية. وإزاء شعورهم بانعدام الأمان هناك، أخذوا بعض الأوانى المملوءة بالمياه وبعض الأطعمة التى عثروا عليها، واحتموا بالمبانى القديمة لإحدى القلاع المهجورة، المقامة على صخرة عالية - حيث كان يوجد فى عهد آخر حصن البلدة - تحسبًا لاضطرارهم إلى الدفاع عن أنفسهم بين جدرانه المهدمة، لحين وصول قواتنا.

فى تلك الآونة كان ماركيز مونديخار مسروراً بذلك النصر، ولم تكن فرحته بوقوع قتلى بين صفوف أعدائه بقدر سعادته باحتلاله لذاك الممر، وهو عمل كفيل أن يمنحه المجد بوفاته فى ذلك اليوم، لولا أنه كان يرتدى درعًا قويًا، حماه من رصاصة بندقية كانت موجهة إلى صدره؛ حتى لا يلحق الخزى برماة الطليعة، ويحدث ما يعكر صفو انتصارهم. فأرسل الماركيز جنديًا نشيطًا بخاتمه إلى القائد الغرناطى كايثيدو مالدونادو Caicedo Maldonado – الذى كان يرافق القوات، يأمره بالانسحاب؛ وأصدر أوامره إلى القائد لويس مالدونادو حتى يؤمن له الطريق مع أربعمائة من الرماة. ومع اقتراب حلول الليل، تراجع المسلمون – الذين لا يحبون القتال فى الليل – إلى الجبال، وانصرف معسكرنا بأسره إلى محل المبيت.

الفصل العاشر

يتناول كيفية عبور قواتنا إلى لانخارون، ومنها إلى أورخيبا، وإنقاذها للبرج

قضى معسكرنا ليلته بأسرها فى تابلاتى، وقام بالعديد من نوبات الحراسة فى أرجاء الروابى المحيطة، لكون ذلك الموقع عرضةً لوقوع أحداث من قبل العدو. وفى يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر من يناير ، قفل ماركيز مونديخار عائداً إلى لانخارون، التى تقع على مسافة فرسخ ونصف على طريق أورخيبا ، بعد أن ترك فى ذلك المعقل سرية من المشاة تحت إمرة بدرو دى أرويّو Pedro de Arroyo فى بلدة بوركونا Porcuna، حتى يتسنى للرجال والدوريات الذهاب والإياب فى أمان. فى ذاك اليوم قام رجالنا ببعض المناوشات الخفيفة مع الأعداء - الذين هبطوا من الجبل عندما شاهدوا تحرك الجيش- وحاولوا القيام ببعض العمليات مع جند المقدمة، إلا إنهم عاودوا التراجع صوب جبل يقع فى الجزء الشرقى من الطريق المباشر، كان حشد كبير منهم قد تجمع عنده، بغية الدفاع عن معبر يتميز بحدة تضاريسه ووعورتها، وكان لزاماً على رجالنا المرور به فى اليوم التالى.

كان المسلمون قد حصّنوا المعبر بوضع أحجار وصخور متناثرة على قمم وسفح الجبل المشرفة على الطريق، بغرض إلقائها فوق رؤوس المسيحيين أثناء صعودهم التبة. وكانت لدى ماركيز مونديخار رغبةٌ عارمةٌ فى إنقاذ برج أورخيبا ، ولم يكن يرغب فى الانتظار ذاك اليوم؛ بيد أنه اضطُر إلى ذلك، لأن مؤخرة الجيش وصلت متأخرة، وكذلك فقد هطلت الأمطار وأضحى الطقس صعباً. إضافةً إلى ذلك، لم يكن الماركيز قد حزم أمره بشأن التقدم بما فى حوزته من رجال أو الانتظار إلى أن يأتى الجنود القادمون

من المدن. فبات ليلته تلك على مرأى من الأعداء، الذين احتلوا المعبر وأضرموا نيرانًا ضخمة في الروابي المحيطة به، واكتفوا بدق طبولهم والعزف وإطلاق الصافرات، وإصدار صيحات عالية لإرهاب جنودنا المسيحيين - الذين باتوا في حرص شديد حاملين أسلحتهم في أيديهم.

في الساعة الرابعة فجرًا وصل إلى خيمة السيد ألونسو دي غرانادا بينيغاس جندي قادمًا من برج أورخيبا، يحمل أنباءً عن دفاع المحاصرين بالبرج عن أنفسهم. وقبيل بزوغ صباح يوم الأربعاء، أرسل ماركيز مونديخار إلى ولده السيد فرانثيسكو دي مندوثا، يأمره أن يصطحب معه مائة فارس ومائتي رام من المشاة، ليسلك الطريق الأوحد الذي يمتاز بالوعورة وشدة الانحدار، حتى يتمكن من مباغتة الأعداء من خلف ظهورهم. على أن يرافقه بعض الجنود الممهدين للطريق، حاملين المعاول والأدوات ليوطئوه لهم؛ حيث رأى أنه أثناء وجودهم في ذاك المكان المرتفع، سيلفون الأرض معدة للتوطئة.

كان الجو صافيًا في ذاك اليوم، فانطلق الجيش بكتائبه في أفضل إعداد وتنظيم، وفقًا لما تسمح به التضاريس؛ يتقدمه لواءان من الرماة، كانا يشغلان القمم العالية على الدوام: حيث يسير أحدهما في السلاسل الجبلية من اتجاه الروابي، بينما يحتل الآخر الناحية المواجهة للطريق الذي تسلكه القوات. وهكذا شرع رجالنا في الالتفاف حول العدو، الذي ظل معلقًا لبرهة من الزمن ما بين الخوف والخزي، دون أن يحزم أمره إما بالانخراط في القتال، أو ترك جيشنا ليعبر، وهو ما سيخول لهم قطع الطريق على دورياته وتعريضه للجوع. بيد أن أولئك الهمجيين الجهلة لم يحسنوا حتى تدبير ذلك، لأنهم حينما شاهدوا الخيول وقد صعدت - مستترةً بظلمة الليل - إلى موضع كانوا يظنون أن المشاة سيعجزون عن بلوغه، فطنوا إلى أنه ما من جبل - مهما بلغت وعورته- لن يتسنى لرجالنا توطئته. فقنطوا من تنفيذ أي من الخطتين، وعزموا على التماس درب آخر، فتراجعوا إلى أحشاء الجبال الوعرة، حيث سيعجز فرساننا عن إلحاق الأذى بهم؛ لكنهم لم يتمكنوا من القيام بذلك بالسرعة اللازمة، التي تحول دون

أن ينال الرماة ممن كان منهم فى مرمى أسلحتهم. فتركوا كلاً من المعبر والطريق خاليًا، ليمر جيشنا إلى أورخيبا، ويقضى ليلته تلك فى ألبسيط وسط فرحة عارمة من الجميع، خاصةً المحاصرين، الذين قضوا سبعة عشر يومًا يحاربون ليلاً ونهارًا فى ظروف مرهقة للغاية وشديدة الخطورة.

كان المحاصرون يعانون من نقص المؤونة، وكان الكثير منهم سيهلك من شدة الجوع، لولا بعض المسلمين من آباء وأزواج النساء اللواتى احتجزهن صاحب القلعة فى البرج، الذين أمدوهم بالماء والمواد الغذائية الأخرى خفيةً، فكانوا يضعون تلك المؤن ليلاً فى مواضع تمكّن المسيحيين من الحصول عليها. وكذلك فقد جُلِبَت لهم الذخيرةُ من موتريل؛ لأن ذخائرهم كانت ستنفد، لو لم يجازف جندى مقدام من أهالى أورخيبا يدعى خوان لوبيث Juan López بالذهاب لإحضارها. حيث استغل معرفته الوثيقة باللغة العربية[٨]، وارتدى ثياب المسلمين، ليخرج فى منتصف الليل خفيةً من البرج، ويعبر وسط معسكرهم، حتى بلغ بلدة موتريل، وأحضر على عاتقه كيسًا كبيرًا مملوءًا بالبارود، و كميةً من الرصاص، وحبلاً؛ مما مكّن مائة وستين روحًا مسيحيًا، إلى جانب خمسة من القساوسة، من الدفاع عن أنفسهم أمام أولئك الذئاب المسعورة.

حمد ماركيز مونديخار الرب كثيرًا على ذاك الحدث السعيد وبعث برسالة تحوى الخبر. لم تكن السعادة التى سادت النفوس من وقعها تقل عن الفرحة بانتصار تابلاتى. وعندما تراءى للماركيز أن بحوزته ما يكفى من الرجال لتمهيد الطريق، كتب إلى السيد فرانثيسكو أورتادو دى مندوثا - كونت مونت أغودو Montagudo، وصاحب مدينة إشبيلية - لكى لا يبعث إليه برجال من تلك المدينة أو متطوعين من إشبيلية، أو جبل طارق، أو قرمونة Carmona، أو أوتريرا Utrera، أو شريش Jerez، الذين كانوا

---

(٨) هذا معناه أنه فى السنوات الأخيرة للوجود الموريسكى فى إسبانيا كان المسلمون لا يزالون يتحدثون بالعربية. (المراجع).

قد احتشدوا للمشاركة فى الحملة. وصلت تلك الرسالة إلى الكونت أثناء وجوده فى قلعة جابر **Alcalá de Guadayra** برفقة حامل راية إشبيلية خوان غوتيّريث تيّو **Juan Gutiérrez Tello**، يرافقهما ألفان من الرماة الراجلين جاءوا على نفقتهم لخدمة المدينة؛ كما حضر غونثالو أرغوتى دى مولينا **Gonzalo Argote de Molina** حامل راية أندلوثيا، بصحبة قادتها ورجال من أهلها. حينئذ قام الكونت بصرف الألفى رام القادمين من إشبيلية، وأمر غونثالو أرغوتى أن يتوجه مع رجال سريته ليركب على متن السفن التابعة للسيد سانشو دى ليّبا **Sancho de Leiva** لتجهيزها. ولم يكن أهل إشبيلية قد انضموا للحملة أثناء وجود ماركيز مونديخار، إلى أن صدر أمر جديد يرسل فى طلبهم، وهو ما سنتطرق إليه لاحقًا حينما يرد ذكره.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيفية توجه ماركيز مونديخار إلى طاعة بوكيّرة، والاستيلاء عليها

عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار، عن طريق بعض الجواسيس، أنباء عن قيام ابن أمية وابن جوهر بحشد كل من مسلمى البشرات، والرجال الذين انسحبوا من معبر لانخارون على وجه السرعة، للدفاع عن مدخل بلدة بوكيّرة، غادر ألباثيتى دى أورخيبا فى صباح اليوم التالى - الموافق الخميس الثالث عشر من شهر يناير - على الرغم من أن الجنود كانوا متعبين من الطريق؛ مخلفًا وراءه القائد لويس مالدونادو لتأمين ذاك المعقل، على رأس أربعمائة جندى، لكى يتسلم المؤونة والذخيرة التى سوف ترد إليهم من غرناطة، ويقوم بإرسالها إلى المعسكر.

كان الجيش الذى يترأسه ماركيز مونديخار يضم الكثير من الرجال الحاذقين جيدى التسلح. حيث انضم إليه العديد من الفرسان، الذين هجروا ديارهم، وقدموا لخدمة المعسكر على نفقتهم الخاصة، رغبةً منهم فى إنزال عقوبة رادعة بأولئك المتمردين، نظرًا لما اقترفوه من انتهاك لحرمة المقدسات؛ وأخذت رغبتهم تلك فى التنامى ساعةً تلو الأخرى، لدى رؤيتهم للحرائق والفظائع التى ارتكبها الأعداء فى المواضع التى يمرون بها. خرجت جموع المشاة فى ثلاث كتائب، وتمركز الفرسان على كلا الجانبين، على نحو يخول لهم الخروج للالتحام دون الإخلال بترتيب الجيش. وقد احتل نراعا الرماة القمم الجبلية من كلا الجهتين، بينما جاءت سرايا جنود المعسكر الفرادى فى الطليعة لاستكشاف الطريق. على تلك الوتيرة كان جيشنا يسير بخطى هادئة وبطيئة، حينما لقيه أربعة فرسان من قادة قرطبة على رأس أربع فرق من أهالى

تلك المدينة: وهما فرقتان من الفرسان، وفرقتان من المشاة، كان كونت تيندِيًا قد أرسلهما من غرناطة. كانتا الفرقتان الأول تحت إمرة كل من سيادة القائد بدرو رويث دى أغوايو Pedro Ruiz de Aguayo والقائد أندريس بونثى Andrés Ponce، أما الفرقتان الأخريان فقد ترأسهما السيدان كوسمى دى أرمينتا Cosme de Armenta وفرانثيسكو دى سيمانكاس Francisco de Simancas.

سرّ ماركيز مونديخار كثيرًا لمجيء أولئك الرجال، وواصل مسيرته. على الرغم من أن الجميع كانوا يحسبون أن هدف الماركيز هو الذهاب لطرد المسلمين من المواضع الحصينة التى التجأوا إليها، فإنه لم يكن يرغب آنذاك سوى فى احتلال موقع منيع ومريح ليعسكر به على مقربة من تلك الطاعة حيث بدا له أن ذلك سيتيح له البقاء مطمئنًا، وسيمكّنه من التزود بالمؤن، وكأنه ما يزال فى ألباثيتى دى أورخيبا. كما أنه يستطيع أن يشن غارات لمضايقة الأعداء من هناك؛ لأنه كان يرى أن اقتحام تلك الأراضى يستدعى توافر أعداد أكبر من الجنود. ما إن قطعت الكتائب مسافة ثلاثة أرباع فرسخ، لتصل إلى سهل يدعى فخار على Faxar Ali، حتى ألفوا المسلمين – الذين تخلّوا عن المعابر والبقاع الحصينة التى كانوا يحتلونها – وقد أعدوا ثلاثة كمائن لاستقبال جيشنا فى الشعاب الجبلية الضيقة. فلمّا تراءى للأعداء أنهم قد أحكموا نصب شباكهم، خرجوا لملاقاة ذراعى الرماة الموجودين فى المقدمة؛ وقد تصدوا للفرقة التى تحتل أعلى نقطة فى تصميم بالغ، مما استلزم تدعيمها بعدد أكبر من الرجال.

عندما تقدم ماركيز مونديخار إلى الأمام لقيادة بعض فرسان الطليعة، بدا له أنه من الأفضل التوقف وتشكيل كتيبة من الرماة المسلحين بالبنادق للتصدى للأعداء. وقد تمكن بواسطتها من نجدة كل الجبهات، لأن العدو كان قد أغار عليهم على نحو تعين معه إغاثة الجميع. كان الذراع الأمامى للجيش – الذى يترأسه ألبارو فلوريس Alvaro Flores كبير حجّاب محكمة التفتيش بغرناطة – قد بادر بالتراجع على وجه السرعة، مخلفًا وراءه قائده برفقة اثنى عشر أو ثلاثة عشر جنديًا فحسب لمجابهة العدو، حينما

هبّ السيد فرانثيسكو دى مندوثا – قائد سلاح الفرسان – لنجدته على رأس فرقة من الفرسان. بيد أن التضاريس كانت شديدة الوعورة، وعندما وصل إليهم لم يكن قد تبقى برفقته سوى أربعة فرسان، حيث لم يتسن للباقين اللحاق به. فتصدى للأعداء هو ومن ظلوا معه، حيث استدار وواجه الجنود، وأخذ يستحثهم ويستنفر قواهم التى كانت شبه خائرة بعد الطريق الذى قطعوه، حتى انضم الجنود إلى القائد، وكذلك فقد صادفهم رجال آخرون جاءوا لتقديم المساعدة. لم يكتف الجمع بالتصدى لزخم الأعداء فحسب، بل أجهزوا عليهم وحملوهم على الفرار، وصعدوا فى أثرهم إلى أماكن يصعب على المرء الاحتماء بها. وقد قام بالأمر ذاته جنود مؤخرة الجيش، بعد أن أغاثهم السيد ألونسو دى كارديناس.

اتسم ذاك اللقاء بالخطورة الشديدة فى بادىء الأمر، إلا أنه أسفر عن أحداثٍ سعيدةٍ فيما بعد، نظراً للشجاعة الفائقة التى تحلى بها الفرسان والقادة الذين تصدوا للمخاطر. وقد أُصيب السيد فرانثيسكو دى مندوثا فى ركبته جراء حجر ألقاه عليه أحد المسلمين، قبل أن يقضى هو عليه فى الحال؛ أما السيد ألونسو بورتوكارّيرو Alonso Portocarrero فقد نال طعنتين بنصل سهم فى فخذيه. هذا ولم يُقتل فى المعركة سوى سياف مسيحى واحد، بينما تجاوز العدد بين صفوف المسلمين أربعمائة وخمسين قتيلا[9]. وقد شرع رجالنا فى ملاحقتهم بالكيفية التى أملتها عليهم وعورة التضاريس وصعوبتها، حيث سار ألبارو فلوريس، برفقة من تمكن من جمعه من الجنود، ونفر من الفرسان، بين السلاسل الجبلية العالية حتى وصل إلى بوبيون؛ وكان دائمًا متفوقًا على الأعداء. فلمّا ألفى المحل خاويًا؛ لأن ابن أمية لم يجسر على الانتظار هناك، وبدأ فى المراوغة من أحد الاستحكامات الكائنة قبالة باب الكنيسة، وهو يدعو رجالنا أن هلموا إلى النصر. وكان ماركيز موندیخار قد جمع قواده للتشاور، بعد أن ارتاب فى مدى صعوبة الطريق، حيث أوقف مسيرة القوات لينظر فى ترتيبات المبيت

(٩) الرقم مبالغ فيه دون شك، وهو يذكرنا بمبالغات مؤلف "ملحمة السيد". (المراجع)

لتلك الليلة. وعندما رأى المكان يموج بالمسيحيين، أمر المعسكر بأسره أن يتحرك إلى تلك النقطة، فتمكنوا من الظفر بقرى تلك البلدة الأربع دون أن يوجد من يتولى الدفاع عنها. كان الفوز بتلك القرى سيستلزم المزيد من الوقت والرجال؛ لأن طبيعة الأرض والتضاريس كانت فى صالح المسلمين.

إبان وصول القوات إلى بوبيون، صعد الجنود فى سرايا إلى أعلى الجبل، حيث أسروا العديد من النساء والأطفال، وقاموا بقتل من طالته أيديهم من الرجال. كما سطوا على قدر كبير مما كان بحوزتهم من الأمتعة المحملة بالثياب والحرير، التى كانوا قد أخفوها فى تلك الأراضى الوعرة. وقد نال القاضى الكنسى برابو Bravo حريته فى بوبيون، هو ومائة وعشرة سيدات مسيحيات كن أسيرات لدى أولئك المارقين. فى اليوم التالى، الجمعة الموافق الرابع عشر من يناير، كانت الحملة تعسكر فى تلك البقعة، ومنها أرسل ماركيز مونديخار دورية حراسة لمرافقة الجرحى والمرضى إلى غرناطة، آمرًا إياهم بعد ذلك بحراسة المؤن والذخائر الموجودة فى أورخيبا. كما بعث رسالةً إلى السيد لويس مالدونادو يخطره بالطريق الذى ينتوى السير فيه، لكى يكون - من الآن فصاعداً - على دراية بالموضع الذى يتعين على الرجال والمؤونة التوجه إليه للحاق بالركب. أُقيم فى ذاك اليوم قداس فى أجواء احتفالية مهيبة، واستمع إليها كل المسيحيين فى خشوع كبير كلٌ فى موضعه تحت الألوية المرفوعة. حقًا كان من المفرح رؤيتهم يمجِّدون الرب لما حققوه من نصر، وللحرية التى حظيت بها الأرواح المسيحية التى أعتقوها.

الفصل الثانى عشر

يتناول كيفية قيام المسلمين بنحر الرجال الذين مكثوا لتأمين تابلاتى

كنا قد ذكرنا آنفًا كيف قام ماركيز مونديخار بتأمين تابلاتى، من خلال الإبقاء على القائد بدرو دى أرويو على رأس كتيبة من المشاة فى بلدة بوركونا، لتأمين ذاك المعبر أمام فرق الحراسة القادمة من غرناطة؛ آمرًا إياه ألا يسمح بعبور الجنود المغادرين للمعسكر دون إذن منه. عندها تمكن القائد من وضع متاريس تأوى إليها الكتيبة ليلًا، وتوجد بها نقطة الحراسة والدوريات، كما هى عادة المحاربين. بيد أنه كان متهاونًا إلى الحد الذى أتاح لمسلمى المنطقة إزعاجه بينما هم فى مأمن. حيث لم يكن يهدف سوى للخروج لقطع الطريق على الجنود الذين تركوا المعسكر دونما تصريح فقط، ليصادر ما كان بحوزتهم من أغنام وجوارى ومتاع قاموا بتهريبها. بينما الأمور تسير على تلك الشاكلة، كان الناقوس والخيرونثيّو يجوبان تلك الروابى ويتحسسان الأخبار، ليريا إذا ما كان بمقدورهما قطع الطريق على إحدى الدوريات. فلمّا فطنا إلى غفلة رجالنا، حشدا ألفًا وخمسمائة مسلم، وأغارا بهما على المسيحيين فى منتصف الليل من ثلاث جهات. فاقتحموا القرية والكنيسة، ونحروا كل الجنود الذين كانوا بهما من ؛ كما جردوهم من أسلحتهم، وثيابهم، والأشياء التى سطوا عليها وقاموا بتهريبها من المعسكر. إلا أن القائدين لم يشعرا بالأمان وسط الحوائط الترابية الضعيفة لتلك المنازل، فعاودا الصعود إلى الجبل.

وصلت تلك الأنباء إلى كل من غرناطة وإلى معسكر ماركيز مونديخار فى آن واحد؛ وطار الخبر إلى بلاط جلالة الملك، مما عكر صفو الانتصار الذى تحقق فى تلك

الأيام، حيث ظن المتأملون فى الأمر أن الأضرار والمخاطر تفوق تلك الحادثة بكثير، واعتبروا أن سماح الأعداء لقواتنا بالمرور إلى البشرات كان مجرد خدعة حربية، حتى يتسنى لهم قطع الطريق عليهم من وراء ظهورهم ومنع وصول المؤن إليهم، لإجبارهم على التراجع أو الموت جوعًا. بيد أن ذاك الوهم تبدد لاحقًا، وعلم الجميع أن تابلاتى من نصيب المسيحيين؛ لأن ماركيز مونديخار لدى معرفته أن المسلمين لم يجسروا على البقاء هناك، أصدر أوامره بأن تبقى أول فرقة تصل إلى موقع الحدث فى نقطة الحراسة. فلمّا أتى خوان ألونسو دى رِينوسو Juan Alonso de Reinoso قائدًا للجموع التى أرسلتها مدينة أندوخار Andujar، امتثل لقرار الماركيز ولزم المعبر فى حذر شديد؛ وقد عثر على بدرو دى أرّويو ملقى على الأرض بين القتلى، وبه العديد من الجروح المميتة، فأمر بمداواته. بيد أنه كان قد ضَعُفَ للغاية؛ لأنه ظل دون شراب طيلة ثلاثة أيام، فمات فى الطريق بينما كان الجنود يحملونه إلى غرناطة.

لم يتوان كونت تينديّا عن نجدة رجالنا؛ لأنه عقب معرفته بالطريق المؤدية إلى تابلاتى، أرسل فى تلك الليلة ذاتها يستدعى السيد ألبارو مانريكى Alvaro Manrique، ابن كونت أوسورنو Osorno، وأحد فرسان رهبانية قلعة رباح العسكرية، الذى كان موجودًا فى إحدى قرى الغوطة على رأس ثمانين فارسًا وثلاثمائة راجل من أهالى قرية أغيلار Aguilar، ومونتيّا Montilla، وبلييغو Pliego . وقد وصل السيد ألبارو إلى جسر شنيل قبيل طلوع الصباح، وهناك كان الكونت فى انتظاره برفقة ثمانمائة راجل ومائة وعشرين فارسًا، فسلّمه الجنود، وأرسله ليقوم بما يلزم فى ذاك المعبر، كما أمره الكونت أن يترك تأمينًا كافيًا، ثم يستكمل مسيرته لينضم إلى معسكر والده الماركيز. انطلق السيد ألبارو حتى وصل إلى الموضع المحدد وألفاه خاويًا، فنفّذ تعليمات الكونت، ثم غادر المكان لينضم إلى معسكرنا فى خوبيليس. أما الآن، فقد حان الوقت لنعود بالأحداث إلى ماركيز بلش، الذى كنا قد توقفنا عند دخوله إلى تابيرناس.

الفصل الثالث عشر

يتناول تلقى ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك لإغاثة ألمرية، وكيفية إغارته على المسلمين المحتشدين فى غيثيخا، وإلحاقه الهزيمة بهم.

كان ماركيز بلش لا يزال برفقة معسكره فى تابيرناس. فى اليوم الذى غادر فيه ماركيز مونديخار تابلاتى، وكان موافقًا للحادى عشر من شهر يناير، تسلم ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك - مماثلاً للاقتراح الذى كان قد تقدم به - مفاده التوجه إلى المنطقة الواقعة ناحية ألمرية لتأمين تلك البقعة. تلقى القائد هذا القرار وهو يشعر بالرضا؛ لأنه كان موجوداً بالفعل داخل مملكة غرناطة، على رأس جيش احتشد أفراده على نفقتهم الخاصة، وانتظمت صفوفه؛ بيد أن وجود قائدى عموم فى نفس المقاطعة، كلاهما لا يرغب فى من ينازعه، بدا وكأنه إهانة لماركيز مونديخار، ومخالفة لمنطق الحرب. أرجع العديد من الأشخاص ذاك الأمر للمشيئة الإلهية، التى رغبت أن يجتمع فى تلك الحرب فى آن واحد شخصيتان لهما إرادتان على طرفى النقيض. فكان من الإنصاف أن يتشفع أحدهما للثوار، ويسعى لإيجاد طرق لإعادتهم إلى ما كانوا عليه؛ بينما يلاحقهم الآخر فى صرامة وشدة، لينالوا العقاب الذى يستحقونه، وينفون من مملكة غرناطة - التى تسنى لهم المعيشة فيها كمسلمين فى الخفاء، والإبقاء على عقيدة محمد بقليل من الصعوبات.

فى اليوم التالى غادر ماركيز بلش موقعه بحثًا عن بعض الأعداء. فقد تنامى إلى علمه أن مسلمى غيثيخا يتحصنون فى ذاك المكان، وأنهم قد أطلقوا السواقى الكائنة على ضفاف النهر لإغراق الحقول، إضافةً إلى قطعهم الأشجار ذات الجذوع السميكة

التى يمرون بها فى الطرق وسبل الرعاة، ووضعهم الكثير من العوائق الأخرى حتى يمسي من المستحيل عبور الخيول إليهم؛ شَقَّ طريقه إليهم. وكان يرافق الماركيز خمسة آلاف راجل - كان السواد الأعظم منهم رماة وقوّاسين - وهم رجال متمرسون فى شن الهجمات المباغتة على ساحل مملكة مرسية، ومعتادون على شؤون الحرب؛ بالإضافة إلى ثلاثمائة فارس مدججين بالسلاح. عقب قيام الماركيز باستطلاع الطريق، والعقبات التى وضعها الأعداء أمامه، سلك سفح الجبل، عند نقطة مرتفعة بعض الشىء، حيث تراءى له أنه سيتمكن من توطئتها بشكل أفضل. بعد أن اصطفت أركان الجيش، التف الماركيز حول البلدة من الخلف، حيث كان لا يزال بالإمكان مشاهدة الحريق عن بعد، وكذا الدمار الذى لحق بالبرج وبالدير الذى أحرق المسلمون بداخله الكثير من رجال الدين المسيحيين.

لم يُظهر المسلمون تخاذلًا، بل خرجوا للقاء الماركيز فى كتيبتين مؤلفتين من أتاسرجال منظمين للغاية، كما هو الحال مع الجنود القدامى من ذوى الخبرة. وقد توقف الجنود على مرأى من رجالنا، وأقدموا على نحر كل من كان بحوزتهم من الأسارى المسيحيين فى قسوة شديدة. كان الغورّى Gorri قائدًا على أولئك المارقين، وكان هو الرأس المدبرة لتلك الفظائع، فأخذ يستعرض الجموع للمعركة؛ لكن الماركيز لم يلق لهم بالاً، لأنه تعرف على المكان الذى يتحصنون به، وكان يدرى من أين سيتمكن من اقتحامه، فانتابته غيرة محمودة جعلته يرغب فى القيام بمآثر جديرة باسمه. فبعث بالسيد أندريس دى مورا فى المقدمة، ليسلك سفح الجبل على رأس خمسمائة من الرماة؛ ثم أتبعهم بولده، السيد دييغو فاخاردو Diego Fajardo، برفقة ستين فارسًا؛ وأمرهم أن يشغلوا الأعداء ببعض المناوشات، حتى يصل هو إليهم مع سائر الحشود. جابه الغورّى ذاك الهجوم بحماس شديد، وتصدى للقتال طيلة فترة لا بأس بها. بيد أنه فى نهاية المطاف، لم يقو على الصمود فى وجه الرماة، فبدأ فى التراجع قبل أن يصل إليه الفرسان. وقد جعل رجاله الأقل فائدة فى المقدمة، يلاحقهم جنودنا من الخلف، بينما قام هو بتسلق صخور جبل إيلار ilar القريب؛ حيث كان قد

خبأ الماشية والمؤونة فى إحدى التحصينات التى تحوطها الحجارة على قمة ربوة عالية. فاسترد قواه هناك حتى يعاود القتال من جديد، لكنه لم يحرز أى تقدم، ولجأ فى النهاية إلى جبال فيليكس.

فى ذاك اليوم نالت الكثير من المسيحيات حريتهن بعد أن كن مختبئات فى منازل القرية، إلى جانب أخريات كان المسلمون قد تركوهن فى الجبال عندما لاذوا بالفرار. قضى ماركيز بلش ليلته تلك فى المعسكر، حتى لا يتيح للجنود الدخول إلى البلدة لجمع الغنائم، ومن ثم التخلى عن الحملة، وهو ما كان أمرًا شائع الحدوث فى تلك الحرب. إلا أن حرصه لم يجد نفعًا، حيث بادرت فرق من الجنود لاحقًا بالانفصال عن الركب فى بقاع البولوبوى ومملكة مارتشينا ، وقفلوا عائدين إلى ديارهم محملين بالثياب والموريسكيات والأمتعة(١٠). وهكذا اضطُرت الحملة للبقاء فى ذلك المعسكر لفترة تزيد عما كان يرغب به القائد.

(١٠) يتفق المؤرخون الإسبان على أن هدف بعض الجنود الإسبان من الحرب ضد الموريسكيين كان النهب والسرقة. (المراجع).

الفصل الرابع عشر

يتناول اقتحام جنود من وادى آش لسند وادى آش

كان من الأفضل لموريسكيات الدير وقلهرة لو أن أزواجهن أبقين عليهن فى الحصن، حيث كن محتجزات لدى صاحب القلعة، بدلاً من الحيلة التى لجؤوا إليها لإخراجهن. لأنه عقب التنقل بهن جياعا طيلة عدة أيام من جبل إلى جبل، اضطُروا لإيداعهن فى منازل الديرة؛ وذلك بعد أن اطمأنوا إلى حماية خيرونيمو المالح Jerónimo el Maleh ومن بصحبته من أهالى الماركزية لهن، أو - كما أخبرتنا لاحقًا بعض تلك النسوة[11]- لثقتهن فى العهد الذى منحهم إياه خوان دى تورّى، حيث قال لهم إن النساء آمنات على أنفسهن فى ديارهن، ولن يصيبهن مكروه. على أية حال، قام البعض بتنبيه بدرو أرياس دى أبِلا، المأمور القضائى لوادى آش، إلى أن المكان يغص بالنساء، وأن هناك محاربون برفقتهن، فقرر الرجل - بالاتفاق مع المجمع الديرانى - الإغارة على البلدة. لكن لم يتسن له الإبقاء على الأمر طى الكتمان بالقدر الذى يحول دون تحذير الموريسكيين المعاهدين القاطنين فى المحل للمسلمين حول ما يدور.

قام السيد بدرو بحشد كل المحاربين الراجلين والفرسان، وانطلق من وادى آش فى يوم السبت الموافق الخامس عشر من شهر يناير، ليلتف حول الجبل فى عجالة،

(١١) يحاول مارمول أن يبدو كمن يستقى الأخبار من مصادرها الأولى، حتى لو كانت من الجانب الموريسكى. (المراجع).

وذلك بعد أن ارتاب فى تنبه الأعداء لذاك الأمر. عندما أضحى على مشارف الديرة – فى أعقاب كل تلك الوقائع – ألفى المسلمين والمسلمات يلوذون بالفرار لاعتلاء الجبل. تقدم صوب الهاربين كل من السيد إيرناندو دى باراداس Herrando de Barradas، والسيد خوان دى سابيدرا Juan de Saavedra، والسيد كريستوبال دى بينابيدنيس Cristóbal de Benavides، والسيد بدرو دى لا كوبيا Pedro de la Cueva، وإيرنان بايى دى بالاثيوس Hernán Valle de Palacios، ولاثارو دى فونسيكا Lázaro de Fonseca، وغيرهم من الفرسان والأهالى، الذين بلغ عددهم إجمالاً أربعة عشر فارسًا؛ وذلك للإمساك بالمسلمين قبيل صعودهم إلى ميناء رباحة Ravaha. فخلّف أولئك القوم وراءهم النساء والمتاع الذى لحق به رجالنا، واعتلوا الجبل إلى أن وصلوا إلى السهل الكائن بإحدى القمم العالية فى الميناء. هناك بادر المالح بتجديد قواه مستعينًا بثلاثة ألوية وجمع من الرجال المسلحين لمجابهة الهجوم، أثناء انشغال الرجال بتجميع النساء والأمتعة. وقد تصدوا لفرساننا، وأغاروا عليهم ببسالة، وكانوا سيضعونهم فى مأزق، لو لم يهب عالم اللاهوت فونسيكا Fonseca لنجدتهم على رأس أربعين من الرماة عندما كانوا فى أشد الاحتياج للمؤازرة.

لمّا شهد أولئك المسلمون، وغيرهم ممن أخذوا يفدون إلى الميدان، قدوم النجدة، شرعوا فى التراجع. ولكنهم لم يهربوا تمامًا، بل إنهم التفوا حول رجالنا، واشتبك الفريقان فى قتال دام ما يربو على نصف الساعة عند أحد التلال، حتى هُزِم الموريسكيون هزيمةً نكراء، ولاذوا بالفرار، بعد أن تركوا من ذويهم أكثر من أربعمائة رجل قتيل، وألفى شخص أسير بين النساء والأطفال، وألف من الأمتعة المحملة بالثياب. كان ذاك الفىء واحدًا من أفضل ما غنمه الجيش فى تلك الحرب، وأقله خطورة. وقد رجع بدرو أرياس دى أبِلا مسرورًا على إثره إلى وادى آش، بينما منى المسلمون بخسارة كبيرة.

الفصل السابع

يتناول كيفية مرور ماركيز مونديخار إلى بيتريس فى فيريِّرة، والخطبة التى ألقاها السيد[١٢] إيرناندو الصغير إلى الثوار.

فى ذات اليوم الذى أغار فيه بدرو أرياس دى أبلا على سند وادى آش، غادر ماركيز مونديخار بوكيِّرة، ليلاحق كلا من ابن أمية والصغير، بعد أن تنامى إلى علمه أنهما يتراجعان ليعودا أدراجهما إلى بيتريس فى فيريِّرة. فترك الطريق المستو، وسلك سلسلة جبلية عالية تتوسط هذين الموضعين. وقد رافقته المدفعية والأمتعة بمشقة بالغة؛ لأن الطقس كان قارس البرودة، وباتت الجبال تكسوها الثلوج. لكن عند دخوله إلى فيريِّرة، لم يجد عدواً يحاربه؛ وكان ما لاحظه أثناء قطعه لذاك الطريق، ومروره بجوار بلدة بورتوغوس، هو مشاهدة دخان كثيف يخرج من الكنيسة. حيث إنَّ نفراً من المسيحيين الأسارى كانوا قد اجتمعوا وتحصنوا ببرج الناقوس، بعد أن أراد سادتهم الفتك بهم، فقام أولئك المارقون بإضرام النيران فى البرج، ليحرقوهم بداخله. تشكك الماركيز فيما يتعين عليه فعله، وبعث إلى السيدين لويس دى كوردوبا وألونسو دى غرانادا بينيغاس حتى يتوجها لاستطلاع ماهية الأمر على رأس مائتى راجل وخمسين فارساً. وقد تمكنوا من الوصول إلى الكنيسة دون معوقات، لأن المسلمين لاذوا بالفرار حينما شاهدوا إطلالتهم.

(١٢) كان لقب "السيد" يتمتع به أشخاص ذوو مكانة، والسيد إيرناندو لم يفقد لقبه حتى بعد انضمامه إلى الثوار. (المراجع).

وقد روى لنا(١٢) هذان الفارسان كيف وصلا إلى الكنيسة، ودلفا إلى الداخل، فأبصرا خمسا من النسوة المسيحيات مسجيات على الأرض، وقد تُوفين جراء ما أُصبن به من جراح. كما شاهدا عند قاعدة المذبح الأكبر طفلاً يناهز الثالثة من عمره، ويداه الصغيرتان مقيدتان بحبل رفيع، وقد أُغمد خنجر فى جانبه الأيسر؛ وكانت دماؤه لا تزال حديثة، حتى أنها لم تتجمد؛ وعيناه مفتوحتين، وشاخصتين نحو السماء فى وداعة شديدة، فبدا كأنه يشكو إلى خالقه ما اقترفه أولئك المارقون فى حقه، وتضحيتهم الوحشية بأعضائه الرقيقة. وقد بلغ جمال محياه الأبيض المشرب بالألوان، أن اتضح لنا جليًا على الأرض مدى الهناء الذى تنعم به روحه، وهى تمجّد الرب وسط الملائكة، بعد تحررها من مخاوف تلك الحرب. فلمّا رأى السيدان ذاك المشهد القاسى، أثار داخلهما مشاعر الشفقة، ولكنه حرك فى ذات الوقت غضبًا عارمًا، جعلهما يتحينان الوقت الذى يأخذان فيه بالثأر بأيديهما، ويقولان لأولئك الغلاظ: "أيها المارقون الملحدون، لم تجسروا على الانتظار ومنازلة الرجال، الذين تزعمون أنهم أساءوا إليكم، فانتقمتم أيها الأشرار الجبناء من النساء والأطفال، وضرجتم سيوفكم الخرقاء الآثمة بدمائهم البريئة!".

كانت النيران قد أتت على جزء من مبنى البرج. ولو تأخرت عملية الإنقاذ القدر اليسير لاحترق عن آخره. بيد أن المسيحيين كانوا قد دخلوا إلى موضع لم تكن الحرارة قد طالتهم بداخله بعد، وكان تصميم بعضهم – النابع من الرغبة فى نيل الحرية– عارمًا، حتى أنهم حينما أبصروا مجىء رجالنا، لم يبحثوا عن باب يخرجون منه، وألقوا بأنفسهم من البرج. عندما لم تقو سيقانهم الهزيلة على حمل أوزان أجسامهم الثقيلة، هوت أجسادهم إلى الأرض، فالتقطهم الجنود، وحملوهم على صهوة الجياد، ومنحوهم حريتهم مع الباقين.

(١٣) لاحظ تعدد المصادر المباشرة عند مارمول. (المراجع).

فى تلك الأثناء كان رجالنا فى طريقهم إلى بيتريس، وهى البلدة الرئيسة بتلك الطاعة، وكان المسلمون قد هجروها. وقد تواجد داخل الكنيسة مائة وخمسون من المسيحيات الأسيرات تم إطلاق سراحهن، بعد أن رفض حاجب البلدة ميغيل دى إيرّيرا السماح للثوار والجنود المسلمين بالقضاء عليهن. كان من بين أولئك الثوار رجال نبلاء حسنو الإدراك، وقد ساءهم ما اقترفه الرجال من أفعال وحشية، وكذلك ما شهدوه من مثابرة أهالى البشرات وإصرارهم على الثورة، على الرغم من رؤيتهم لرجال البيّازين يلتزمون الهدوء، لتحميلهم هم مغبة ما حدث، بل إنهم طالبوا أن يُطبّق عليهم عقابٌ صارمٌ. وهكذا رغبةً منهم فى درء ويلات الحرب عن أنفسهم، أرجعوا تلك الآثام إلى مثيرى الشغب، وإلى حالة الجهل الذى تشهده تلك القرى؛ أما هم فيرغبون فى العيش فى سلام وهدوء فى ديارهم، لذا فقد قاموا ببعض الأعمال التى ظنوا أنها قد تعود عليهم بالنفع فى يوم ما.

كان أكثر من طالب بعودة الهدوء إلى تلك الأراضى هو السيد إيرناندو الصغير، الذى نصّبه ابن أمية قائداً عامًا لقواته. فعندما رأى أن المسلمين قد تراجعوا من معبر لانخارون، وبعدها من بوكيّرة، دون أن يخوضوا معركةً مع جيشنا، فطن إلى أنه هالك. فقام بجمع حجّاب البلدان ورجالاتها البارزين - وكانوا من أصدقائه - وأراد إقناعهم أنه على ضوء عدم قدرتهم على مجابهة جلالة الملك، فإن عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تحمل صاحب الجلالة على الصفح عنهم. فألقى على مسامعهم الخطبة التالية: " لا أدرى كيف أقول لكم يا إخوتى كيف أننا لم نهتم بمصالحنا! بما أننا لا نقوى على القيام بكل ما يلزم لصالح ديارنا، ونسائنا، وأولادنا، لنصبح كما نرغب: مدافعين عن حريتنا، لم لا نتبع نصح الحكماء، بدلاً من الانسياق وراء حظ عثر، قد أظهر مدى عدائه لنا؟ إن من يفوقوننا نفوذًا، ومن وضعوا فينا ثقةً كبيرةً، لم يجرؤا بعد على تجربة الثورة. إن للغرناطيين أجساداً كأجسادنا، وأرواحًا تُبذل وتُصاب، وهم يستشعرون ذات الحنق الذى ينتابنا؛ بيد أنهم لا يودون الإلقاء بأنفسهم بتهور فى هاوية الغضب. لنرى الآن، ما الذى سنجنيه نحن من تضحيتنا بدمائنا إذا ما انتصرنا

المرة تلو الأخرى، طالما أن الملك فيليبى لن تنقصه الأسلحة أبدًا لمحاربتنا فى عزم يتزايد كلما أمعنا فى إغضابه؟

أرى أنه من الأفضل أن نستعطفه، ونسلمه أسلحتنا وألويتنا – وهى ملك له بحق – ونطلب الصفح عن ذنوبنا، ونحن واثقون أنه سيقبلنا. من الأفضل أن نفعل ذلك الآن بينما مصير الحرب يبدو مشكوكًا فيه، بدلاً من المثابرة على فحش كبير كالذى أقدمنا عليه، وما أثقلها من آثام عديدة وتجاوزات كالتى تم اقترافها، من وجهة نظرنا لأسباب عادلة. على الرغم من أننا إذا ما أمعنا النظر فى الأمر، سنجد أن ما حدث لا يعدو كونه حماقة أناس قليلى الفهم، ونحن أخضعنا أنفسنا لمشيئتهم ورغبتهم فى الانتقام.

لنكن على وفاق مع المسيحيين، رغمًا عن أنهم يضيقون علينا معيشتنا. هل ننكر أننا لا نتناول مياه التعميد كما يفعلون؟ هل ننكر أننا لسنا رعايا خاضعين للملك فيليبى؟ على النحو ذاته لا يسعنا إلا الاعتراف بأن المرسوم – الذى أحدث داخلنا كل تلك الثورة – كان يُراد من ورائه خير، على الرغم من أنه بدا لنا مهلكًا! ألا ترون أننا لسنا بالمسلمين الصالحين أو المسيحيين الصالحين؟ إذا ما كان الأمر كذلك، أليس صحيحًا أننا أغضبنا الرب أولاً، ومن بعده مليكنا ، بإشعالنا لتلك الثورة؟ لا بد من احترام المقدسات فى كل مكان. لقد انتهكنا حرمة المعابد بإشعال الحرائق والتخريب، فسرقنا القساوسة وقتلناهم. نحن نريد إطاعة ملك آخر، كما لو كنا ندرى أنه أفضل. ونود إنقاذ أنفسنا على أيد أناس همجيين، لنضحى مثلهم مسلمين.

فلتعلموا أننا لن نتمكن من إعالة أنفسنا فى كنف حكومة أخرى، حتى لو وقفت إفريقيا بأسرها إلى جوارنا، ولن تنحاز إلينا بلاد البربر لأنهم يريدون الصالح لنا، بل طمعًا فى سرقتنا، لأنهم جبابرة متمرسون على النهب والسرقات. وحينما يعجزون عن الاستيلاء على المزيد، سيعودون أدراجهم محملين بما غنموه من ديارنا، بعد أن يسلبوا شرف نسائنا وبناتنا، كما فعلوا فى بقاع أخرى. لن أبتهل إلى الله أن يحفظ لى حياتى، إذا ما كانت خيانة وطنى وقول الزور السبيل للإبقاء عليها. إن ما تسمونها

بالحرية يستحسن مقايضتها بالسلام. لا أدرى ما الذى ظننا أننا سنجنيه من جراء الحرب؟ نحن لا نجيد مواجهتها أو إدارة ظهورنا لها، حيث تنقصنا الخبرة، والأسلحة، والسفن، والجدر التى يمكننا الاحتماء بها، على النحو الذى فرض علينا التنقل من مغارة إلى مغارة، ومن جبل إلى جبل، مصطحبين النساء والبنين، هربًا من وحشية الإسبان(١٤) الذين يلاحقوننا. فى نهاية الأمر، كان الجوع هو ما حملنا على الاستسلام، كما أعيا غرناطة والعديد من مدن تلك المملكة من قبل، حينما كانت فرص أسلافنا فى الدفاع عنها أفضل. أنا أعلم أن ماركيز مونديخار سيشملنا بعطف الملك فيليبى إذا ما لجأنا إليه بتذلل وخضوع. ولن تكون الشروط التى يفرضها علينا مخزية - وهو الذى تلقى من جانبنا إساءات بالغة - حتى إذا طبّق على بعضنا جزاءات رادعة - وكنت أنا أول المعاقبين - فإن ميتتى تلك ستكون مباركةً، إذا ما كفرت بها عن ذنب أمتى بأسرها."

إلى هنا أنهى الصغير حديثه. وقد أقر الشيوخ الموجودون هناك رأيه الناضج. فأرسل إلى كل من خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيا - اللذين ذكرنا آنفًا كيفية إنقاذه حياتهما فى أوخيخار(*) - وأطلعهما على ما اتفق عليه المجتمعون، ورجاهما أن يقصدا ماركيز مونديخار ويضطلعا بعرض مسألة الاستسلام عليه، ويُعلماه بمدى الندم الذى يشعر به موريسكيو البشرات. وأن يتضرعا إليه حتى ينوب عن الصغير فى التوسط لدى جلالة الملك، لكى يصفح عن ذاك الخطأ، ويبسط جناح رحمته على الناس الذين يرغبون فى وضع مصيرهم بين يديه فى تذلل. وسوف يقوم الثوار، أثناء مناقشة ذاك الشأن، بتسليم الأسلحة والألوية، على أن يُمنح الصغير براءةً ممهورة بتوقيع الماركيز يُؤمَن فيها على حياته هو وأسرته.

---

(١٤) يضع مارمول على لسان الثائر المسلم ما يفيد أنه غير إسبانى، والمؤلف هنا يؤصل للربط بين العقيدة الكاثوليكية والهوية الإسبانية. (المراجع)

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل السادس عشر، الفقرة الأولى. (المترجمة).

انطلق خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيا من خوبيليس، آخذين على عاتقهما تلك المهمة، ومحملين بخطاب موجه من الصغير إلى الماركيز، يعتذر فيه عما حدث، ويلقى باللوم على الثوار الجبليين. وصل الرجلان إلى بيتريس فى ذات اليوم الذى دخلها فيه جيشنا، وسلّما الرسالة إلى ماركيز مونديخار. وقد أصدر الماركيز بدوره أوامر بإرسال المسيحيات إلى غرناطة مع إحدى دوريات الحراسة، نظرًا للعبء الذى يمثلنه، وأيضًا حتى يتمكن من استطلاع آراء قادة المعسكر حول السبيل لفتح الطريق المليء بالصعاب الذى ينتظره لاستكمال مسيرته إلى خوبيليس؛ وهو ما حمله على البقاء فى اليوم التالى فى ذاك المحل. أما الرد الذى منحه الماركيز لخيرونيمو دى أبونتى، فكان أن يعود إلى الصغير، ويخبره بأنه إذا ما سلم الأسلحة والألوية – على النحو الذى ذكره – ووضع نفسه تحت رحمة جلالة الملك تمامًا، فإنه يسره أن يتشفع لهم عند صاحب الجلالة، لكى يتغمدهم بعطفه. بيد أنه يتعين عليهم حزم أمرهم؛ لأنه لن يؤجل تنفيذ العقوبة التى ينوى إنزالها بهم ولو لحظة واحدة. ثم أرسله فى طريقه، بعد أن تجاهل سند الأمان الذى طالب به الصغير.

الفصل السادس عشر

كيف جرؤ المسلمون على اقتحام بيتريس أثناء وجود قواتنا داخل البلدة

تقع بلدة بيتريس فى المنطقة الجنوبية من سفح جبل شلير. وهى مقسمة إلى ثلاثة أحياء لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض. توجد الكنيسة فى الحى الرئيس، وتواجهها ساحة متوسطة؛ أما بقية البلدة فتشكلها تلال ومنخفضات تحوطها جبال وعرة، ولكنها عامرة بالغيلات، نظراً لوفرة عيون المياه المنحدرة من الأودية. كان المسلمون، الذين اعتادوا القيام بتحركات على مرأى من معسكرنا، رغبةً فى إرهابنا أكثر من الدخول فى معركة، ينتوون القيام بأمر ما ينتهزون به فرصة ظهور سحابة كثيفة لاحت فى الأفق صباح يوم الأحد؛ إما ذاك أو إنهم اعتقدوا أن المعسكر كله يغادر موضعه، عندما شاهدوا تحرك عدة سرايا كان الماركيز قد أرسلها لاستطلاع الطريق -كما أخبرنا نفر منهم فيما بعد - وكانوا يرغبون فى الاحتماء بالمنازل المخصصة لإيواء الأفراد من العواصف الباردة، ظناً منهم أنها خاوية. فنزلوا من الروابى فى سرعة فائقة، وتوجهوا لاقتحام المكان من جانبين، فوصلوا إلى القرية دون أن تراهم دوريات الحراسة أو تستشعر وجودهم، وذلك من جراء الظلام الحالك الذى فرضته السحابة.

أما من دخلوا من الجهة السفلية بمحاذاة النهر، فقد أغاروا على عدد من المنازل المنعزلة بعض الشيء، وكانت يعسكر بها إحدى كتائب الجنود. فلمّا ألفوهم غافلين، قاموا بنحرهم، ولم يفلت منهم سوى غلام واحد شرع فى الصراخ والمناداة إلى حمل السلاح من أعلى أحد التلال، حتى تمكن من بلوغ نقطة الحراسة ومأوى الماركيز، الذى

امتطى بدوره صهوة جواده وخرج إلى ساحة القتال. ظن الماركيز أن قدوم الأعداء من المنطقة السفلية لابد وأن يكون خدعةً حربية، حتى يباغتونه بالهجوم دفعةً واحدة من الأعلى، وبهذه الطريقة يفرقون بين رجالنا؛ فأصدر أوامره بحشد جميع السرايا فى ثكناتها، وأن يتوجه الفرسان إلى الميدان. ثم أمر خوان أوتشوا دى نابارّيتى وأنطونيو فلوريس دى بينابيديس - قائدى المشاة اللذين يترأسان مقاتلى مدينة بياسة - أن يتمركزا مع من برفقتهما من الكتائب فى الحى الكائن بالمنطقة الشرقية، والذى يبعد شيئًا ما عن الكنيسة، وذلك لوجود هوة ضخمة تفصل بينهما فى المنتصف، تحسبًا لمجيىء العدو من تلك البقعة. هذا ولم يخب ظنه؛ لأنه ما إن وصل القائدان إلى الموقع حتى قابلهم المسلمون، الذين صعد بعضهم من تلك الهاوية وأسلحتهم تقطر دمًا، بينما هبط آخرون من الجبل.

فى بداية الأمر نشب قتال حامى الوطيس بين الجانبين، لكن فيما بعد انضم المزيد من المقاتلين إلى جبهة المسلمين - على الرغم من أنهم كانوا أقل من العدد الذى صورته ظلمة السحاب الكثيف لرجالنا - ومع استشعار جنودنا - حديثى العهد بالقتال - للخطر وهنوا، وبمرور الوقت أداروا ظهورهم للعدو وتركوا قائديهم وحيدين. لم يقصّر الأعداء فى مطاردتهم على أحد جوانب الهوة، إلى أن حملوهم على دخول الحى الرئيس. وقد هب الماركيز لنجدتهم بصحبة الكثير من الفرسان والقادة، فتدارك الخطر، وأجبر المسلمين على أن يلونوا بالفرار من حيث أتوا، بعد أن قتل بعضهم. برز فى ذاك اليوم اثنا عشر جنديًا، كانوا على رأس أحد الشوارع التى قدمت منها حشود الأعداء، فدافعوا عن المدخل، كما قتلوا وجرحوا الكثير منهم، واستولوا على ثلاثة من ألويتهم، ثم اضطروهم إلى الهرب بعد أن تصادف قدوم النجدة إليهم. كان أحد تلك الألوية عبارة عن راية قرمزية من الحرير الدمشقى الموشى بالذهب، وكان عادة ما يُشرع كبيرق فى صدر الاحتفالات بالقربان المقدس فى أوخيخار، وقد رفعه الملحدون فى إشارة إلى خيانتهم وآثامهم.

تقهقر أعداء الرب إلى الجبل، عقب إدراكهم لسوء حالهم فى ذاك الموضع. وأثناء مرورهم بين المنازل، فتكوا بطبّال مسكين عثروا عليه وحيداً، وكان يدق على طبوله فى عجالة يدعو لحمل السلاح. فى أعقاب ذلك اجتمع الفارون مع حشود المقاتلين الآخرين التى لم تكن قد اكتُشف وجودها بعد، وعادوا أدراجهم مرةً ثانيةً ليروا إذا ما كان فى وسعهم القيام بأى أحداث؛ بيد أن أشعة الشمس بددت ذاك الضباب، وسطع ضوء النهار على نحو أتاح لقواتنا رؤيتهم. على الرغم من كل ما حدث، لم يتوان الأعداء عن تنفيذ هجومهم، وقد تقدموا لمسافة كبيرة، حتى أن الأحجار التى كانوا يقذفونها بأيديهم كانت تبلغ ساحة القتال. إلا أن التأثير الذى أحدثه رماتنا على ذلك الجانب كان بالغًا إلى الحد الذى أجبر الموريسكيين على التراجع، بعد أن فطنوا إلى أن أمورهم ستسوء أكثر كلما بزغ ضوء الشمس؛ فرجعوا إلى معسكرهم. قُتل آنذاك جنديان جسوران: كان أحدهما خوان دى إسلا Juan de Isla، ابن شقيق ألبارو دى إسلا المأمور القضائى لأنتقيرة، والآخر أحد أهالى غرناطة ويدعى خيرونيمو دى أبيلا Jerónimo de Avila، بالإضافة إلى آخرين نجهل أسماءهم. ولم يكمل رجالنا المطاردة نظرًا لتأخر الوقت، وهطول أمطار كثيفة مصحوبة بالثلوج أعاقت مهمة الرماة.

الفصل السابع عشر

كيف انطلق جيش ماركيز مونديخار من بيتريس لملاحقة الأعداء.

انطلق ماركيز مونديخار من مقر مبيته فى بيتريس فى اليوم التالى، الموافق الاثنين السابع عشر من يناير، فى أجواء عاصفة شديدة مصحوبة بهطول الأمطار والثلوج؛ حيث عدل عن السير فى الطريق المستقيم الذى يقوده إلى خوبيليس، وسلك الطريق إلى تريبيليث. لم يكد الماركيز يقطع مسافة فرسخ ونصف الفرسخ، حتى اكتشف الجنود المسلمين، الذين يتوجهون صوب خوبيليس عن طريق السلسلة الجبلية الكائنة على الجهة الأخرى من النهر، حيث قضوا ليلتهم. وكان الأعداء يحسبون أن جنودنا يقطعون الطريق ذاته، وأنهم قد سبقوهم فى المسير، فبعثوا بستمائة رجل فى ثلاثة ألوية ليقوموا ببعض المناوشات لتعطيلهم إلى أن يتقدم باقى الجيش. حينما أبصر الماركيز تقدمهم، أرسل إلى كل من دييغو دى أراندا وإيرنان كارّيو دى كوينكا حتى يهاجما المسلمين على رأس جنودهما. تصدى المسلمون لذاك الهجوم بعد أن فطنوا إلى قلة عدد الرجال؛ أما جنودنا، فعلى الرغم من أنهم بدوا وكأنهم يتجهون نحو العدو، فإنهم لم يتقدموا بالقدر اللازم لبلوغ وجهتهم.

حينئذ بعث الماركيز بالأخوين إيرناندو دى أغريدا Hernando de Agreda وغوميث دى أغريدا Gómez de Agreda - وهما من أهالى غرناطة – وغيرهما من الرجال الذين كانوا يرافقونه، لتعضيد الكتيبتين المقاتلتين بخمسمائة من الرماة. بيد أن الماركيز تنبه فيما بعض إلى أن الأعداء يهدفون إلى تعطيلنا حتى يتسنى لهم الخروج إلى بر الأمان، فأمر القوات الداعمة بالتراجع، وبادر بالتحرك بخطى حثيثة مع

سرايا الفرسان، بعد أن أرسل في المقدمة القائدين غونثالو تشاكون ولورينثو دي لِيّبا Lorenzo de Leiva، بالإضافة إلى غونثالو دي ألكانتارا ومن برفقته من الفرسان، ونفر من المشاة، وذلك لقطع الطريق على جيش المسلمين الذين كانوا آخذين في التقدم عبر تلك الرابية. عبر سلاح الفرسان النهر، وشرعوا في صعود الربوة. لكن عند وصولهم إلى الأعلى، كان المسلمون قد مروا بالفعل من تلك المنطقة، على الرغم من السرعة الكبيرة التي سار بها القادة، فلم يستطيعوا سوى طعن بعض الجنود الذين تخلفوا بالرماح؛ وقد تخلى رجالنا عن ملاحقة المسلمين حينما أرخى الليل سدوله. حط معسكرنا رحاله عند بعض أشجار السنديان الموجودة أسفل بلدة تريبيليث ، في موضع قريب من إحدى غيضات أشجار سنديان الفلّين ومن النهر، نظراً لوفرة المياه والحطب اللازم لحماية الرجال من برودة الجو. سلك المسلمون أعلى الجبل، ولم يوقفوا مسيرتهم حتى دخلوا ما بين الثلوج، حيث توفي منهم عدد من النساء والأطفال نظراً للطقس البارد. حتى المسيحيين أصبحوا وقد تجمد منهم ثلاثة أو أربعة أشخاص، كما نفقت بعض الجياد عقب تناولها لعشبة ضارة كانوا قد وجدوها في تلك الأودية.

الفصل الثامن عشر

يتناول عبور الماركيز إلى قلعة خوبيليس، وفرار قادة المسلمين دون الاشتباك معه.

توجه المسلمون – الذين فروا من أمام جيشنا – صوب خوبيليس ليقضوا بها تلك الليلة. وكانوا قد حشدوا فيها النساء والثروات التى جمعوها من تلك البقاع. وقد ارتأوا التحصن فى موضع القلعة القديمة، التى أتينا على ذكرها آنفاً، وهى منيعة للغاية فى شتى أحوال القتال بالأيدى. وكان مراد العدو التوقف هناك لعدة أيام أثناء محاولة إبرام معاهدة سلام، لأن خيرونيمو دى أبونتى كان قد منحهم الأمل فى إمكانية عقدها، على ضوء ما فهمه من رغبة الماركيز أثناء وجوده فى بيتريس. على الرغم من أن الصغير وبقية القادة توجسوا خيفة من عدم رغبته منحهم سند أمان ممهوراً باسمه، وافترضوا ما كان ربما يدور فى خلدهم، من أنه سوف تُطبق عقوبات يُضرب بها المثل على الرؤوس المدبرة للثورة.

من هنا بات هناك أخذ وعطاء حول مسالة الاستسلام، وظهرت آراء متباينة بين صفوف المسلمين فى تلك الليلة. أما الأشرار، الذين ساقهم ما اقترفوه من ذنوب إلى فقد الأمل فى العفو عنهم، فقد قالوا بنحر كل السيدات المسيحيات الموجودات بالأسر، ثم التحصن والقتال قدر الاستطاعة. وحينما يعجزون عن مواصلة القتال، سيهجرون موضعهم ويلجأون إلى الجبال؛ وهو أمر يمكنهم القيام به بسهولة، نظراً لطبيعة التضاريس، التى تتميز بالوعورة الشديدة، التى تحول دون أن تطأها الخيول. وأما من لم تكن آثامهم بتلك الفداحة، فقد دفعهم حبهم لزوجاتهم وبنيهم – الذين يشهدون معاناتهم من الجوع، والبرد، والإرهاق، وغيرها من المتاعب – أن يأملوا فى تحقيق

الهدوء والأمن فى ديارهم؛ فمالوا إلى رأى الصغير، ولم يكونوا يرغبون فى قتل المسيحيات. بل إنهم ظنوا فى إمكانية التهدئة من غضب المسيحيين عن طريق إطلاق سراحهن، فأخرجوهن فى نفس تلك الليلة من الكهوف التى كن بها داخل القلعة، وأخبروهن أن عليهن التوجه إلى منازل البلدة وانتظار قدوم آبائهن، الذين لن يتأخروا فى المجيء. قامت العديد من الموريسكيات باستضافتهن فى بيوتهن وتدليلهن، من أجل أن يقفن إلى جوارهن حين دخول الجنود إلى القرية.

عقب إطلاع ماركيز مونديخار على الطريق الذى سلكه العدو فى تلك الليلة، أمر بتحرك الجيش فى الصباح الباكر ليوم الثلاثاء، الموافق الثامن عشر من يناير، وسلك طريق العودة إلى خوبيليس. كان بالكاد قد دلف إلى تلك البلدة، حينما جاءه خيرونيمى دى أبونتى يرافقه خوان سانشيث دى بينيا، وأسلماه رسالةً أخرى من الصغير، يكرر فيها ما ورد فى الخطاب الأول، ولم يزل يطالب بتأمين لشخصه ولابن أمية كتابةً. نقل هذان المسيحيان إلى الماركيز الرغبة التى أظهرها المسلمون، وما دار بينهم فى اجتماعاتهم، وحمايتهم للمسيحيات من القتل على أيدى الثوار الجبليين؛ كما أكدا له أن أولئك الثوار كانا المسبب الرئيس للشرور التى تم اقترافها فى المعابد والقساوسة والأهالى المسيحيين، وحاولا نزع المسؤولية عن كاهل كل من الصغير وابن أمية. وقد أجابهما الماركيز بأن عليهما الرجوع إلى الرجلين، وإخبارهما أن يحضرا إليه لتسليم نفسيهما، وهو سيقبلهما، كما سيقبل كل من يأتى فى صحبتهما، تصديقًا لما قال من قبل فى بيتريس؛ بيد أن عليهما أن يعيا أنه لن يمنحهما أى وقت لترتيب للأمر؛ وكذلك فقد تجاهل مسألة التأمين الكتابى. ارتاب الماركيز فى كون الأمر برمته يهدف لمنحهم وقت لإخراج الثياب(١٥) والنساء من البلدة، فأمر الرجال بحث الخطى.

(١٥) الدارس للتاريخ الإسبانى فى ذلك العصر يدرك الأهمية الاستثنائية التى تمثلها الثياب، فهى ترد فى اتفاقية تسليم غرناطة، وترد فى المراسيم الملكية، كما ترد فى مذكرة نونييث مولاى محامى الموريسكيين. هنا أيضًا يخشى الماركيز أن يستغل المسلمون الفرصة لإخراج ثيابهم من البلدة. (المراجع).

مع عودة الرجلين المسيحيين بالجواب، الذى لم يلق أى استحسان من قبل القائدين المسلمين، قام القائدان بتجميع المقاتلين، وأخذا بعض الأغراض الثمينة التى تسنى لهما حملها، ثم تركا القلعة وتوجها صوب بيرتشول عبر الجبال، بعد أن تركا أوامر للجميع بأن يحذوا حذوهما. عند اقتراب ماركيز مونديخار من ذاك الموضع، أوقف مسيرته هو وسرايا المشاة، وبعث بغونثالو دى ألكانتارا فى صحبة نفر من الفرسان لاستطلاع المكان، آمراً إياه ألا يسمح للجنود بالدخول إلى المنازل، لكى لا ينفصلوا عن الركب بغرض السرقة، ويحدثوا أية كوارث. لم يمض وقت طويل حتى عاد المسيحيان، وقصا على مسامع الماركيز كيف رجع القائدان يرافقهما سائر المقاتلين أدراجهم إلى بيرتشول وكاديار. وأنهما اصطحبا السواد الأعظم من النساء، بحيث لم يتبق بالقلعة سوى خمسمائة رجل من الشيوخ المقعدين، والكثير من النسوة اللاتى لم يستطعن الذهاب.

فى أعقاب ذلك أصدر الماركيز تعليماته بالتحرك نحو البلدة، فخرجت المسيحيات الأسيرات لملاقاته، إلى جوار بعض الصخور الكائنة بالقرب من المنازل الموجودة بالمنطقة المرتفعة المطلة ناحية الغرب، وهن يذرفن الدموع التى استثارت فى الحقيقة مشاعر الشفقة. وكان السواد الأعظم منهن يحملن أبناءهن الصغار بين أيديهن، بينما تبعهن الأطفال الأكبر بعض الشيء سيراً على الأقدام؛ وجميعهن كاشفات الرأس، تنسدل شعورهن على أكتافهن، وقد ابتلت وجوههن وصدورهن بالعبرات، التى تقطر من أعينهن فى سرور وأسى. هذا ولم يفلح أى عزاء فى التهوين عليهن إزاء رؤيتهن لرجالنا المسيحيين، وتذكرهن للميتات بالغة الوحشية التى منى بها أزواجهن، وإخوانهن، وآباؤهن، وأبناؤهن أمام أعينهن. فأخذن يصرخن قائلات: " لا تبقوا أيها السادة على حياة رجل أو امرأة من أولئك المارقين، فقد كانوا أشراراً للغاية، وأساءوا إلينا أبلغ إساءة، وعلاوةً على ذلك كله حاولوا أن نرتد عن ديانتنا ما بين الرجاء والتهديد". لان قلب الماركيز لدى رؤيته لتلك السيدات المسكينات الملتاعات إلى ذاك الحد، وبادر بالتخفيف عنهن قدر استطاعته. ثم أبعدهن إلى أحد جوانب الطريق،

وأرسل رجالاً ليتتبعوا خطى المسلمين في الاتجاهات التي اعتقد أنهم قد سلكوها، فذهب المشاة إلى بعض الأرجاء، بينما قصد الفرسان أنحاءً أخرى، وذلك وفقًا للمكان وطبيعة التضاريس. أما هو فقد سار مع جموع الجنود ليدور حول القلعة.

الفصل التاسع عشر

يتناول حضور الكاهن القانونى توريّخوس إلى معسكرنا يرافقه العديد من حجّاب البشرات لمحاولة تهدئة الأوضاع فى الأراضى.

لم يكن رجالنا قد احتلوا قلعة خوبيليس بعد، حينما حضر الكاهن القانونى توريّخوس برفقة ميغيل بن ثابا Miguel Abenzaba - حاجب بالور - وستة عشر من حجاب القرى الرئيسة فى البشرات، ليبحثوا مع ماركيز مونديخار سبل إقرار السلام. وكان توريّخوس هذا - كما ذكرنا فى مواضع سابقة- الكاهن القانونى لداريّكال، كما كان مقربًا للغاية إلى قلب أحد الموريسكيين المنحدرين من سلالة حجّاب أوخيخار السالفين يدعى أندريس الوزير، وكان الكثيرون يعتقدون أنه ولده؛ وكذلك فقد كانت أمه موريسكية. من أجل ذلك قام أندريس، وسائر أقربائه، لتوقيرهم إياه، بالوقوف إلى جانبه أثناء الثورة، للحيلولة دون قتل الثوار الجبليين له. وحتى نفهم قصته بصورة أفضل، وهى ليست بأقل من أن نذكرها، فسوف نتناولها فى هذا السياق فى إيجاز. كنا قد أوردنا من قبل، فى الفصل الخاص بثورة أوخيخار(*)، كيف أن أحد أصدقاء توريّخوس الموريسكيين كان قد أخرجه من البرج الذى كان حبيسًا بداخله، وخبأه فى أحد الكهوف الموجودة بجبل غادور. عقب إيداعه بالكهف، تم إبلاغ أندريس الوزير بما حدث، فحمله إلى منزله فى أوخيخار، وأبقاه هناك لعدة أيام؛ وكان هذا هو المكان الذى

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصلين الثالث عشر والرابع عشر. (المترجمة).

قصده الصغير والبارتال وآخرون للتحاور معه، وتأمينه على حياته. أثناء وجود أولئك الرجال، بالإضافة إلى ميغيل دى روخاس - صهر ابن أمية - بالبلدة، لم يكن لدى توريّخوس ما يخشاه. لكن إبان رحيلهم، ومجىء آخرين لا تربطهم معه تلك الصداقة الوثيقة، قام أندريس الوزير بنقل الرجل إلى نيتشيتى Nechite تمهيداً لإرساله فى إحدى الليالى إلى وادى آش.

حدث أن هبت عاصفة شديدة جداً، وتساقطت كميات كبيرة من الثلوج، فى الوقت الذى كان يتعين فيه نقل الرجل، فلم يتسن لأحد عبور الجبل. فى أعقاب ذلك نزل ابن فرج بالبلدة، وكان يقترف الفظائع التى أسلفنا ذكرها فى حله وترحاله. فلمّا علم بوجود توريّخوس هناك، نادى بأنه يُحظَر على أى مسلم يود البقاء حيًا إخفاء توريّخوس أو أى مسيحى أخر؛ وإنه يتوجب على الجميع جلب النقود، والفضة، والذهب، والحلى التى حصلوا عليها من المسيحيين؛ وكان قد اعتاد القيام بذلك فى سائر المواضع التى يصل إليها. فأنبأه من بالبلدة أن الرجل مريض فى الفراش، وإن كلا من ابن أمية والصغير قد منحاه الأمان؛ بيد أن كل تلك الأمور لم تكن لتجد نفعًا، لكن الأربع آلاف دوقية - التى مثلت ما بحوزته من نقود- والمشغولات الفضية التى وضعها الرجل بين يدى ابن فرج قد نجحت فى كبح جماح غضب الطاغية. علاوةً على ذلك، فقد قتل ثلاثة من خدم توريّخوس المسيحيين، وغلامين آخرين كانا قد أفلتا من الموت فى أوخيخار، وكانت أماهما قد أودعتاهما فى تلك البلدة.

عقب انصراف ابن فرج من البلدة، قام أصدقاء توريّخوس بحمله إلى بالور، وأودعوه منزل ميغيل بن ثابا، وكان شخصًا عاقلاً، يُعَد من أكثر الرجال بالبلدة ثراءً. وهناك شرع الموريسكيون فى الإعداد لمسألة الاستسلام معه ومع نفر آخرين من أقاربه. فيما بعد اصطحبه أندريس الوزير إلى نيتشيتى للغرض ذاته، وهناك توجه لرؤيته كل الحجّاب - الذين يرافقونه الآن رغبةً فى تشفعه لقضيتهم لدى ماركيز مونديخار وكثيرين غيره ممن تربطهم معهم معاملات تجارية - وذكّروه بما جلبوه له من نفع؛ كما رجوه أن يرأف بتلك الأراضى، وأن يحاول إصلاح أوضاعها بكل السبل

المتاحة، فهم يعرفون أتم المعرفة أن مصيرهم إلى الفناء، أما هو فقد قام من جانبه بتشجيعهم، وتطوع لإنجاز مهام عظيمة.

وصل الجمع إلى معسكرنا يحمل أفراده فى أيديهم أعلامًا بيضاء ترمز إلى السلام. وقد سمح لهم الماركيز بالتقدم صوبه، بعد أن عرف الهدف الذى قدموا من أجله. ألقى الحجّاب بأنفسهم تحت قدمى الماركيز، وطلبوا منه أن يرحمهم ويصفح عن خطاياهم. عرّف الكاهن القانونى سيادة الماركيز بالحجّاب، وكيف أنهم قدموا – بعد أن فطنوا إلى الخطأ الذى اقترفوه – لوضع أنفسهم تحت رحمة جلالة الملك، ليشملهم فى كنف رعايته وحماه؛ وهو ما سيُقدم عليه باقى الأهالى إذا ما اطمأنوا إلى إمكانية القيام بذلك. وهم يرجونه فى ضراعة أن يتشفع لهم لدى جلالة الملك حتى يعفو عنهم. ناب توريّخوس عن الحجّاب فى توصيل تلك العبارات وغيرها من كلمات إراحة الضمير إلى الماركيز، الذى استقبلها فى سرور، وطمأن الموجودين. كما أصدر أوامره للجميع حتى يضعوا فى الاعتبار عدم تعريضهم لأى ضير؛ لأن الجنود كاد صبرهم ينفذ حينما شهدوا محاولة التوصل لحل وسط مع الثوار؛ وباتوا يلعنون توريّخوس وكل من يسعى لتحقيق الوساطة، كما لو كانوا ينتزعون من بين أيديهم جائزة فوز محقق. عندما أدرك الجنود فى اليوم التالى أن الماركيز قد قبلهم، سرى بين جنبات المعسكر أسى عميق كما لو كانوا قد خسروا الحملة.

الفصل العشرون

يتناول احتلال المسيحيين لقلعة خوبيليس، وقتلهم للمستسلمين فى تلك الليلة

تقع قلعة خوبيليس على قمة ربوة شديدة الارتفاع، تحوطها المنازل الكائنة فى الجهة الشرقية. على الرغم من أن أسوارها قد سُوت بالأرض، فإن موقعها كان يتيح للأعداء الدفاع عن أنفسهم، لو لم تُعقهم خلافاتهم عن القيام بذلك. أثناء مسيرة رجالنا صوب القلعة، نزل ثلاثة شيوخ مسلمين عند منتصف سفح الربوة يرفعون راية السلام؛ عندما مُنحوا الأمان وسُمح لهم بالتقدم، أخبروا الماركيز عن فرار القادة والمقاتلين، ورجوه بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الموجودين داخل القلعة أن يُدخلهم فى رحمته. حينئذ أمر الماركيز كلاً من السيد ألونسو دى كارديناس، والسيد لويس دى كوردوبا، والسيد رودريغو دى بيبيرو، وفرسان آخرين بالتقدم والاستحواذ على القلعة ومن فيها. وهو ما قاموا به لاحقًا، وسط همهمات الجنود الذين حسبوا أنه سيستأثر بالفىء، بيد أن الماركيز غنّمهم المتاع، الذى كان يحوى على مقتنيات ثمينة من الحرير والذهب والفضة واللؤلؤ، بعد أن منح الجزء الأكبر والأفضل منه لمن تقدموا المسيرة.

كان عدد المستسلمين ثلاثمائة رجل وألفى ومائة سيدة. نظرًا لتمتع ذلك الموضع بعدد من سبل الرعاة، التى تُمكّن من يرغبون فى التدلى بالحبال من أسوار القاعة ليلا القيام بذلك دون أن يراهم أحد، أمر الماركيز بإنزال الأسرى إلى البلدة، على أن يتم إيداع النساء فى الكنيسة وإيواء الرجال داخل المنازل. دخل ذاك القرار لاحقًا قيد التنفيذ، ولمّا كانت سعة الكنيسة صغيرة وعدد الأفراد كبيرًا، كان لابد أن يظل خارج

المبنى ما يربو على ألف روح، تواجدوا فى كل من الساحة الصغيرة المقابلة لباب الكنيسة وأحواض الزرع الكائنة ببعض الحقول القريبة، وأحاط بهم المقاتلون.

كان الليل قد قارب على الانتصاف حينما رغب أحد الجنود - وكان يُعد من السفلة - فى إخراج إحدى الفتيات من بين النساء. قاومت الفتاة الجندى، الذى جذبها بعنف من ذراعها ليحملها على مرافقته غصبًا، عندما عجزت الكلمات أن تحقق له مأربه. عندئذ نهض أحد الغلمان المسلمين واقفًا على قدميه، وكان دائمًا ما يتبع تلك الفتاة مرتديًا زى امرأة، ولعله كان أخيها أو زوجها أو حبيبها. فتوجه صوب الجندى، وهاجمه فى حماس وتصميم بالغ بخنجر كان قد خبأه، حتى أنه لم ينتزع الفتاة من بين يديه فحسب، بل سلبه سيفه، وطعنه به مرتين. كما قدم روحه فداءً بعد أن قاتل جنودا آخرين هاجموه لاحقًا. سرت النداءات فى المعسكر قائلةً إن هناك مسلمين مسلحين بين النساء، فكثر الرجال الذين هرعوا من كل الثكنات فى فوضى عارمة، حيث لم يعرف أحدهم من أين تأتيه النداءات، ولم يفهم الجنود بعضهم بعضًا، أو يروا المكان الذى يتعين عليهم التوجه إليه نظرًا للظلام الحالك. هب المزيد من الجنود إلى مكان الغلام الحانق، ومن هنا بدأت الأفعال الوحشية، ولقى الناس على أيديهم ميتات جائرة، حيث أعملوا سيوفهم فى النساء الهزيلات الضعيفات، وقتلوا فى لحظات قلائل كل من كن خارج الكنيسة من النسوة. ولم تكن السيدات الموجودات بالداخل لتبق على قيد الحياة لو لم يسارع بعض خدم الماركيز بإغلاق الأبواب، وكان من حسن الطالع أن بات أولئك ليلتهم فى البرج للاعتناء بهن.

أُصيب هنالك العديد من الجنود، وكان أكثرهم قد جرح بعضهم بعضًا، حيث ظن من حضروا من خارج الساحة أن من يغمدون السيوف فى الموجودين هم من المسلمين، لأنه لم يكسر ظلمة الليل الحالك سوى بريق نصل السيوف ولمعان بارود البنادق؛ كان أولئك الجنود هم من تسببوا فى القدر الأكبر من الدمار، حيث أرادوا الثأر لدمائهم المراقة من تلك النساء اللواتى كان سلاحهن الوحيد الدموع وأنين الآلام. فى خضم كل ذاك الاضطراب بادر القائد العام على وجه السرعة بإرسال القائدين

أنطونيو مورينو وإيرناندو دى أرونيا بالإضافة إلى قادة مجموعات الجنود لمعالجة ذلك الوضع، لكن لم يُفلح أى منهم فى تحقيق ذاك المأرب، حيث كان المعسكر بأسره قد هاج فيما يشبه التمرد، بعد أن أغضب الجنود المنشور الذى صدر فى ذاك اليوم، وحظر فيه الماركيز على الجنود أخذ أى من النساء فى الأسر لكونهن جميعًا من الحرائر.

استمر حصد القتلى والجرحى إلى أن بزغ ضوء الصباح وهدأ الجنود من تلقاء أنفسهم: أما من عجزوا منهم عن كبح تعطشهم الدائم لإراقة الدماء، فلم يبق أمامهم المزيد من الدماء لكى تُهدر؛ بينما فطن آخرون إلى فداحة الخطأ الذى تم اقترافه. شرع الأب أوستوس دى ثاياس Ostos de Zayas – كبير المستشارين القانونيين – لاحقًا فى محاكمة المذنبين، حيث شُنِق ثلاثة جنود أظهرت المعلومات تورطهم فى الأمر. فى اليوم ذاته أرسل الصغير – الذى كان قد تراجع إلى بيرتشول – إلى الماركيز يخبره برغبته فى الاستسلام. فقام الماركيز بدوره بإرسال كل من السيد فرانثيسكو دى مندوثا، والسيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، مع لواء من الفرسان، وكتيبة من المشاة لاصطحاب من يودون تسليم أنفسهم. بيد أن الصغير ندم لاحقًا على فعلته؛ لأنه خشى أن تُفرض عليه عقوبة رادعة، فتوغل فى الجبال. فما كان من السيد فرانثيسكو دى مندوثا إلا أن اصطحب زوجته، وبناته، وعائلته، وأربعين من المسيحيات الأسيرات كن برفقتهن ليعود بهن إلى خوبيليس، بعد أن أدرك إن ابن أمية قد توجه صوب أورخيخار.

الفصل الواحد والعشرون

كيف شرع ماركيز مونديخار في منح الأمان للمسلمين الخاضعين، وإرساله المسيحيات الأسيرات إلى غرناطة.

أصدر ماركيز مونديخار أوامره بمنح الأمان للمسلمين الخاضعين الذين قدموا برفقة الكاهن القانوني تورّيخوس. كما أمرهم أن يذهبوا إلى القرى ويحاولوا بطريقة ما حمل الأهالى على الرجوع إلى منازلهم. ولم يقبل الماركيز أن يسيء أحد معاملتهم، حتى يتحمس الأهالى حينما يشهدون الترحاب الذى لقيه أولئك، والمعاملة الحازمة التى طُبّقت على من ظلوا على عنادهم. لم ترق تصرفات القائد العام للقادة والجنود المعادين للسلام، أو لمن نظروا إلى طغيان أولئك الثوار على أنه إساءة لهم، حيث تراءى لهم أن الماركيز قد بالغ فى ترأفه بهم. أما المسيحيون الذي كانوا أسرى فكانوا أكثر من تأسى لذلك الأمر، فباتوا يروون بين الدموع والتشنجات الحزينة الأفعال الوحشية التى قام بها الموريسكيون، والابتهاج الذى هتفوا به لاسم محمد وعقيدته، والتحقير والازدراء الذى تعاملوا به مع دور عبادة عقيدتنا المقدسة أمامهم؛ بيد أن ماركيز مونديخار تجاهل ذلك كله، ظنًا منه أن أسلوبه أكثر مواءمة للأوضاع.

لمّا كان لابد للجيش من التقدم إلى الأمام، ونظرًا لوجود الكثير من الأشخاص عديمى النفع[١٦]، أرسل الماركيز تيّو دى أغيلار Tello de Aguilar لاصطحاب

(١٦) أى أنهم من غير المقاتلين ويعوقون سير الجيش كالنساء والأطفال وكبار السن. (المراجع).

المسيحيات اللاتى كن أسيرات والجرحى والمرضى إلى غرناطة، على أن ترافقه كتيبة فرسان إثيخا Ecija وكتيبتان للمشاة. وقد قطعوا الطريق فى ستة أيام؛ لأن النساء كن يسرن على الأقدام، وكان عددهن قد بلغ ثمانمائة نفس. إبان دخول المدينة، قام القائد بوضع المشاة فى الطليعة، والفرسان فى المؤخرة، بينما سارت النساء فى المنتصف على هيئة الموكب. وقد حمل عنهن كل سيّاف طفلين: أحدهما عند صهوة الفرس والثانى عند المؤخرة، كما حمل بعضهم ثلاثة أطفال: اثنين على صهوة الفرس، والأكبر سنًا عند المؤخرة.

خرج حشد غفير من الناس لمشاهدة دخولهم من بوابة باب الرملة. وقاموا جميعًا، ما بين مشاعر السرور والتعاطف، بتقديم الشكر المطلق للرب الذى حررهم من سطوة أعدائهم. حينما وصلوا إليهم لتحيتهم، لم تسعف الكلمات أو الأنفس الكثير منهن عندما أردن التحدث، حيث بلغ الارهاق والكرب منهن مبلغًا شديدًا. كان من بين النساء العديد من السيدات النبيلات، والفتيات الأنيقات الجميلات، اللواتى تربين فى ترف شديد، ممن سرن عاريات حافيات، وقد أساء إليهن كل من الأسر والطريق؛ فلم تتفطر لمرآهن قلوب من يعرفهن فحسب، بل من لم تسبق لهن رؤيتهن. سار الركب على تلك الشاكلة فى المدينة بأسرها حتى وصل إلى دير سيدتنا عذراء النصر -الكائن أعلى بوابة وادى آش- الذى قصدوه للصلاة، ومن هناك توجه الجمع إلى حصن الحمراء لرؤية ماركيزة مونديخار. عند رجوع النساء إلى مقر رئاسة الأساقفة، اصطحب الأقارب قريباتهم إلى أماكن إقامتهم، بينما استضاف الأهالى الصالحون النساء الأخريات إحسانًا منهم، وتم شراء ثياب وأحذية لهن من أموال الصدقات.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول الهجوم الذى شنه ماركيز بلش فى تلك الآونة على مسلمى فيليكس.

مكث ماركيز بلش فى غيثيخا طوال خمسة أيام فى أعقاب الهزيمة التى ألحقها بالغورَى دون أن يقرر وجهته التالية. وقد طالبه الأب مولينا دى موسكيرا من موقعه فى قلهرة بالتعجيل فى المضى صوب سند وادى آش، لأن ذهابه إلى هناك سيكون له أهمية بالغة فى تأمين تلك الأراضى بأسرها. وكان الجواسيس قد أعلموه بأن المسلمين لديهم كتيبتين من الرجال: أحدهما فى أندرش، والأخرى فى فيليكس، فأراد الماركيز التوجه لتفكيكهما. فى يوم الثلاثاء، الموافق الثامن عشر من يناير، وهو ذات اليوم الذى توجه فيه ماركيز مونديخار إلى خوبيليس، انطلق ماركيز بلش مع جيشه من مقر إقامتهم، وذهبوا لقضاء تلك الليلة أعلى جبل غادور - الكائن فى منتصف الطريق المؤدى إلى فيليكس تقريبًا - لكى يُغير على ذاك الموضع فى يوم الأربعاء الذى يوافق عشية يوم القديس سيباستيان Sebastián.

فى أعقاب ذلك وصلت أنباء تلك الحملة إلى ألمرية، وإلى السيد غارثيّا دى بيّاروِيل. وهو رجل مجرم، يريد أن يحوز المجد دائمًا، وأراد أن يسبق الماركيز إلى ذلك الأمر؛ فغادر المدينة برفقة سبعين من الرماة الراجلين وخمسة وعشرين من الفرسان. وفى الصباح الباكر من يوم الأربعاء ذاته تمركز فى ميناء يقع على مسافة ربع فرسخ من فيليكس، فى الموضع الذى يتعين على قوات ماركيز بلش المرور به. كان هدفه من القيام بذلك هو أن يحسب المسلمون لدى رؤيتهم إياه إنه يمثل طليعة الجيش، ويبادروا بالفرار، مما يمكنه من سرقتهم قبل وصول الماركيز. بيد أن الأمور لم تسر على النحو

الذى توقعه، حيث أشهر المسلمون أسلحتهم حينما اكتشفوا وجوده، ثم تقدموا وهم يدقون الطبول وينفخون فى الأبواق، وخرجوا لانتظاره فى كتيبة من المشاة وذراعين من الرماة فى المقدمة. وقد أرسلوا فى بادىء الأمر خمسين رجلاً فرادى لاستطلاع الأجواء، ثم أتبعوهم بخمسمائة رجل لبسط نفوذهم على إحدى الروابى المرتفعة، التى تعلو الميناء. ورغبةً منهم فى إفهام المسيحيين أن لديهم أعدادا غفيرة من الرجال، شكّلوا سرية أخرى من الغلمان والنسوة اللواتى اعتمرن المعاطف والقبعات والقلنسوات الخاصة بالرجال، ووضعوها أسفل الموقع القديم لقلعة كانت قائمة هناك من قبل.

حينما أبصر السيد غارثيًا دى بيّارّويل تلك الحشود الغفيرة، التى بدت أكبر من حجمها لبعد المسافة؛ والهيئة التى خرجوا عليها، وهى جديدة على أهالى تلك الأراضى، فطن إلى ضرورة وجود أتراك أو مسلمين من شمال إفريقيا بين صفوفهم. حينما أدرك الرجل أن مسعاه قد فشل، عاد إلى الطريق الذى كان يسلكه جيشنا، لكونه أفضل السبل التى تؤمن له التراجع. ولم يمض وقت طويل حتى لقى الماركيز، وقص عليه ما دار. عندما سأله الماركيز إذا ما كان يعتقد أن الأعداء سيجرؤون على المكث فى موضعهم، أجابه أنه يرى أنهم باقون، حيث تم تنبيهه إلى وجود كل من التازى Tezi والفوتىّ Futey، وكذلك بويرتوكارّيرا Puerto Carrera – القادم من خيرغال – على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وإلى أنهم قد أحكموا تحصين المكان، واتخذوا وضع الدفاع. طلب منه الماركيز منحه خمسين جنديًا ممن يرافقونه، وكانوا رجالاً جسورين ومتمرسين على تلك الأراضى، فأعطاهم له، وقفل عائدًا إلى مدينة ألمرية فى تلك الليلة. واصل ماركيز بلش طريقه بعدما اصطفت سراياه فى نظام محكم: حيث تقدمهم ألف رام فى الطليعة، وكان أغلبهم من الجنود المسلحين بالبنادق، بينما سار سلاح الفرسان بأسره فى صحبته هو على أحد الجوانب.

أما المسلمون، الذين كانوا قد عاودوا التمركز عند أطلال القلعة، فقد ظنوا أن تلك القوات هى ذات القوات التى كانوا قد شهدوا تقهقرها آنفًا؛ فخرجوا لملاقاتها،

وانتظروها فى منتصف الطريق، بعد أن اصطفوا على نفس الهيئة التى اتخذوها فى المرة السابقة. مع وصول طليعة كتائبنا إلى مرمى طلقات رماة كتائبهم نشبت معركة حامية الوطيس، تفوق فى شدة احتدامها ولججها كل ما يمكن تخيله؛ لأن المسلمين تحمسوا وفعلوا كل ما فى وسعهم. على الرغم من ذلك، حينما أدركوا أنهم يقاتلون فى مواجهة جيش ماركيز بلش -الذى اعتاد مسلمو تلك الأراضى تسميته بإبليس الرأس الحديد[١٧] Ibliz Arraez el Hadid، ويعنى الشيطان صاحب الرأس الحديدية - فقدوا الأمل فى تحقيق النصر. فى خضم الاشتباكات المحتدمة، شن فرساننا هجومًا من أحد الجوانب، حمل فيه رجالنا الأعداء على التخلى عن موقعهم الذى كان منيعًا للغاية، وأجبروهم على التراجع إلى أن وصلوا إلى منازل البلدة. هنالك عاودوا تنظيم صفوفهم، وقاتلوا لبعض الوقت. فى أعقاب إبعادهم عن موقعهم للمرة الثانية، لاحقتهم كتائب المشاة، وصعدت الجبل فى أعقابهم، وكانوا فى بقعة مرتفعة، حتى دفعتهم نحو القمة، التى تتمتع بقدر لا بأس به من النتوءات الصخرية، التى نحتتها الطبيعة فيما يشبه المتاريس. وعندها أقام المسلمون جبهة وشرعوا فى القتال من جديد، وأظهروا استهانتهم بزخم المشاة، بعد أن تحرروا من ملاحقة الخيول لهم. بيد أن الرماة - الذين كان لهم بالغ الأثر فى ذاك اليوم- تغلغلوا بينهم فى شجاعة، فقتلوا منهم الكثير، وهزموهم وأجبروهم على الفرار. وقد مات كل من سقطوا باتجاه أماكن وجود الخيول، أما من سلكوا أعلى الجبل فقد نجوا.

لقى ما يربو على سبعمائة مسلم حتفهم على مدار الاشتباكات الثلاثة وملاحقة الجنود لهم، وكان من بينهم بعض النسوة اللاتى قاتلن كالرجال البواسل، حتى أنهن وصلن لإعمال خناجرهن فى بطون الخيل. بينما قامت أخريات، لم يجدن أحجارًا

(١٧) مستوى اللغة العربية عند مارمول موضوع يغرى بالدراسة. يهمنا هنا أن نثبت دون شك أن اللغة العربية كانت حية فى أوساط الموريسكيين حتى قبيل رحيلهم عن إسبانيا. (المرجع).

لرميها على الجنود، بملء قبضاتهن بتراب الأرض وإلقائه على أعين المسيحيين، لإعماء أبصارهم، والتسبب فى فقدهم لحياتهم وأبصارهم فى آن واحد. قتل كل من التازى والفوتيّ أثناء القتال، كما أُسِرَ أحد أبناء بويرتو كارّيرو، وفتاتان من شقيقاته، وعدد غفير من النساء. بينما قُتِلَ نفر من المسيحيين وجُرِح ما يزيد على خمسين رجلًا. ظفر الجيش بفيء ثمين من المتاع المُحَمل بالثياب، والحرير، والكثير من الذهب، واللؤلؤ؛ وهو ما جعل الجنود قانعين بهذا الانتصار. غير أن تلك المغانم الوفيرة باتت مضرة؛ لأن الكثير من الجنود هجروا ألويتهم، ورجعوا إلى ديارهم رغبةً منهم فى تأمينها. وقد شكى ماركيز بلش من ذاك الأمر فيما بعد، قائلاً إنهم قد خذلوه حينما كان فى أمس الاحتياج إليهم، وكان الداعى وراء مكوثه فى فيليكس هو الحيلولة دون مغادرة من تبقى برفقته للمعسكر. أثناء بقائه فى ذاك الموضع، وصلت إلى الماركيز قوات مرسية، التى لم يكن الأب أرتياغا Artiaga - القاضى المقيم بتلك المدينة - يرغب فى إرسالها إليه دون أن يأمره جلالة الملك بذلك. جاء ثلاثة من نواب مجلس البلدية كقادة لتلك القوات: حيث أتى السيد خوان باتشيكو برفقة لواء مكون من خمسين فارسًا، كما حضر كل من ألونسو غوالتيرو Alonso Gualtero ونوفرى دى كيروس Nofre de Quirós مع كتيبتين تضم كل منهما مائتين وخمسين راميًا وقواسًا. وكذلك فقد وصل كل من السيد بدرو فاخاردو Pedro Fajardo - ابن السيد ألونسو فاخاردو، سيد بولوبى Polope - والسيد دييغو دى كيسادا، الذى كان ماركيز مونديخار غاضبًا عليه منذ الهزيمة التى مُنى بها فى تابلاتى، على رأس ثمانين جنديًا من الرماة وعشرين فارسًا مغوارًا أحضروهم من غرناطة. واجتازوا بهم نهر المياه البيضاء، وعبروا سند وادى آش والبولوبى للوصول إلى فيليكس، وهو الموضع الذى سنتركهم فيه الآن، لنرجع إلى شأن المعسكر الآخر الموجود فى خوبيليس.

الفصل الثالث والعشرون

كيف وصل جيش ماركيز مونديخار إلى كاديار وأوخيخار، وهاجم بعض الكهوف التى تمركزت بها جماعات من المورسكيين.

انطلق جيشنا من خوبيليس فى يوم الأحد الموافق الثالث والعشرين من يناير، ووصل فى ذات اليوم إلى كاديار. ولم يحدث أثناء المسيرة أمر يذكر، لأن المسلمين كانوا قد تراجعوا إلى أوخيخار. وإذا كان نفر منهم قد هبط من الجبال للقيام ببعض المناوشات، فقد عاودوا الصعود فيما بعد، حيث لم يجرؤوا على الهجوم إلا بالخناجر. راودت السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس(١٨) الرغبة فى التميز بالقيام بأمر يلقى استحسان ماركيز مونديخار خلال تلك الليلة، وكان يشهد المفاوضات التى تجرى فى شأن استسلام المسلمين، فطلب الإذن لمكاتبة ابن أمية فى ذاك الأمر. لمّا سُمِحَ له بذلك، بعث إليه أحد المسلمين الخاضعين، بيد أن الرسالة لم تصل إلى يديه فى تلك المرة؛ لأن الجنود أجهزوا على الرسول الذى كان يحملها؛ لذا فإنه لا يوجد ما يدعونا لذكر فحواها فى هذا الموضع، وسوف نرجئه إلى الوقت الذى نتناول فيه الرسالة الثانية التى كتبها إليه.

غادر الجيش كاديار فى الصباح الباكر من يوم الإثنين. وقد حضر إليه نفر من المسلمين فى الطريق لتسليم أنفسهم، وجاء ضمن هؤلاء دييغو لوبيث ابن عبو – وهو

(١٨) نذكر القارئ غير المتخصص بأن القائد المذكور حفيد الملك أبي الحسن من زوجته المسيحية وأنه كان متعاطفا مع المورسكيين ويبذل ما يستطيع للتخفيف عن كاهلهم (المراجع).

من أبناء عمومة ابن أمية، وابن أخ الصغير- وقد اصطحب معه شماس كنيسة ميثينا دى بومبارون، الذى كان أحد رعاياها، ليشهد أمام ماركيز مونديخار كيف أنه دافع عنها ضد الثوار الجبليين الذين كانوا يريدون إحراقها، وكيف قام بإخفائه هو وزوجه وأبنائه فى إحدى المغارات حتى ذلك اليوم للحيلولة دون قتله. سُر الماركيز كثيرًا بما قصه خادم الكنيسة على مسامعه، وأطرى على المسلم أمام الآخرين، وقال إن أهالى البشرات لم يثوروا جميعًا بمحض إرادتهم. وقد أعقب ذلك بإصدار تعليمات لمنحه صك أمان مرض للغاية حتى لا يتعرض له أحد بسوء، وحتى يتسنى له حث جميع أهالى تلك البلدة، والموجودين خارج نطاقها ممن يرغبون فى الدخول تحت إمرة جلالة الملك، على الاستسلام.

فى ذلك اليوم سار مقاتلونا فى طريقهم إلى أوخيخار بعد تنظيم صفوفهم؛ لأنهم حسبوا أنهم سيلاقون هناك حشود الأعداء التى يتعين عليهم محاربتها. كان ابن أمية قد لجأ إلى ذاك الموضع فى أعقاب فراره من خوبيليس، فجمع قادة الثوار لينظر معهم ما يتعين عليهم أن يفعلوه، فشرعوا فى اختيار مكان منيع، نظرًا لطبيعة التضاريس ويتمركزون فيه لانتظار قدوم معسكرنا، واستعمال الأسلحة فى الدفاع والهجوم، أثناء اضطلاع رجال الفرق الأخرى بالإغارة على دوريات الحراسة الخاصة بمعسكرى الماركيزين؛ لأنه من الضرورى الإبقاء عليهما متفرقين. كانت هناك آراء متضاربة حول ذاك الاختيار: حيث رغب ميغيل دى روخاس وأهالى أوخيخار أن يقع الإختيار على بلدتهم؛ لأنهم كانوا قد بدأوا بالفعل فى مفاوضات السلام، وقالوا إن أوخيخار تتمتع بموقع منيع، ويمكن زيادة تحصينه بسهولة بالغة، كما أن وجودها فى وسط البشرات، يخول لها إغاثة سائر بقاع البشرات الأخرى على وجه السرعة. أما الغورّى برفقة رجال آخرين – ممن يكرهون السلام الذى سيدفعون رؤوسهم ثمنًا لتحقيقه – فكانوا على يقين من أنه ستطبق عليهم أحكام العدالة الرادعة، بوصفهم القادة والرؤوس المدبرة لتلك الشرور، فكانوا لا يريدون وضع أنفسهم فى موقع يُمَكّن أحدًا من محاصرتهم. وهكذا باتوا يضعون ثقتهم فى وعورة الجبال أكثر من وثوقهم فى الأسوار

والترميمات التى سيزجون بأنفسهم بداخلها، فأرادوا الذهاب إلى باتيرنا - وهى بلدة على سفح الجبل ما بين أوخيخار وأندرش - حيث لا يتسنى لأحد أن يحدق بهم، كما أن تراجعهم سيمسى آمنًا متى رغبوا فى مغادرة المكان.

لمّا كان ميغيل دى روخاس صاحب السطوة بين الموجودين، وبما أنه كان له نفوذ كبير فى تلك الأراضى، فقد تجاهل تلك الآراء، وحمل ابن أمية على أن يقع اختياره على التحصن فى أوخيخار، وهو ما تم إقراره فى تلك الجلسة. بيد أن الغورّى والبارتال والسينيث انفردوا به فيما بعد، وقادوه للاعتقاد - ما بين الرهبة والمكر- أن صهره يخدعه؛ وأنه قد عقد اتفاقًا مع ماركيز مونديخار، يسعى بموجبه لإيداعهم جميعًا فى موضع يتيح للماركيز الإيقاع بهم فى شباكه، على أن يحتفظ هو بما فى حوزته من النقود والفضة. ومن الجائز أنهم كانوا يقولون الحقيقة. فى نهاية الأمر أجبر الخوف ابن أمية على تغيير ما انتواه، وتوجه الجمع إلى باتيرنا. لكن أولئك القادة لم يقنعوا بذلك، فبالغوا فى إغضاب ابن أمية إلى الحد الذى حمله -دون تريث أو تقصى الأمر- وانتهاكًا لأواصر القرابة، أن يقرر قتل صهره. فبعث إليه يستدعيه إلى منزله، وانتظره متسلحًا بالقوس والسهام لدى الباب يرافقه الأشرار الآخرون. لكنه أخطأ فى الرمية، لأن ميغيل دى روخاس حينما شاهده يصوب سلاحه نحوه، انحنى مذعوراً أسفل مرمى السهم الذى طاش ناحية الأعلى. وقد عاجله السينيث برمية أخرى عبرت ما بين فخذيه، وفى أعقاب ذلك انهال الجميع عليه بالسيوف حتى أردوه قتيلًا. من هنا دبت مشاعر عدائية شديدة بين أقارب القتيل وابن أمية، الذى طلّق زوجه، وأقسم ألا يُبقى رجلاً منهم على قيد الحياة: ففى ذات اليوم الذى ارتكب فيه جريمته، شرع أيضًا فى ملاحقة صهره دييغو دى روخاس Diego de Rojas أسفل الوهاد بغية القضاء عليه؛ مما دعى سائر من بقى من أقربائه - بالإضافة إلى حجّاب أوخيخار- إلى توخى الحذر معه. وكذلك فقد قتل رافائيل دى أركوس Rafael de Arcos - وهو شاب من ذاك النسل- وغيره؛ ومن هنا تنامى تعطشه إلى القتل حتى طاله هو نفسه وأجهز عليه، وهو ما سنتطرق إليه فى حينه.

فلنرجع الآن إلى جيشنا، الذى كان يسير بصفوف منتظمة فى طريقه إلى أوخيخار. حينما اقترب الجيش من الموضع ألفى المسلمين قد غادروه؛ بينما التجأ البعض - ممن لم يرغبوا فى التوجه صوب باتيرنا - للتحصن فى مغارات كانوا قد زودوها بالمؤونة لذاك الغرض، حيث لم يشعروا هم أيضًا بالأمان فى المعسكر. وكانت مداخل البلدة ومنافذها تقع بين صخور وأحجار قائمة الانحدار وشديدة الارتفاع، بحيث لا يمكن الصعود إليها دون سلالم طويلة. أقام جيشنا فى أوخيخار، بعد أن عزم على ملاحقة الأعداء فيما بعد، حتى لا يتيح لهم فرصة لإعادة تنظيم صفوفهم أو التقوّى فى أى مكان. بيد أن الماركيز أُجبِر على التوقف، حيث تم تنبيهه إلى أن المسلمين المختبئين داخل تلك الكهوف يتلفظون بكلمات معادية لدياتنا الكاثوليكية المقدسة، ويفخرون بكونهم مسلمين، ويتباهون برغبتهم فى الموت فى سبيل محمد؛ فقد قادهم خوفهم من المصير السئ الذى سيلحق بهم إلى المجازفة بتعريض أنفسهم للخطر. أسفر ذلك الأمر عن استشاطة ماركيز مونديخار غضبًا، كما أضحى غضبه عارمًا حينما تنامى إلى علمه قيام الموريسكيين بإلقاء تمثال مهشم للمسيح المصلوب على المسيحيين من أحد الكهوف ازدراءً لهم، وهو يقولون: "أيها الكلاب، ها هو ذا إلهكم!". كما تفوهوا بأشياء أخرى لا تستحق فى مقابلها أقل من عقوبة رادعة، وهو ما تم بالفعل؛ حيث قاتلهم رجالنا، وهزموهم بقوة السلاح، وقتلوا كل الرجال الذين ألفوهم فى الكهوف.

كان فى داخل أحد تلك الكهوف رجلان مسلمان برفقة زوجيهما وأبنائهما وتسع مسيحيات أسيرات، كانوا يرغبون فى الفرار من عقاب جنودنا والدخول فى حظوتهم فيما بعد، فبادروا بالاستسلام إبان مجيء قواتنا. لم يكتف الماركيز بقبولهم فحسب، بل أفاد منهم لاحقًا كجواسيس، وعادوا علينا بالكثير من النفع بما قدموه لنا من خدمات. قدم العديد من المسلمين البارزين إلى معسكر الحملة لتسليم أنفسهم، وقد تم قبولهم جميعًا وإكرامهم، ومنحوا الأمان لكى يرجعوا إلى قراهم سالمين. بيد أن تلك النزعة الإنسانية زادت من غضب قادة الثوار الجبليين؛ لأنهم فطنوا إلى أنه تم إلقاء

الذنب كاملاً على عاتقهم، بما لا يدع مجالاً للصفح عنهم. حتى المسيحيون أنفسهم، الذين لم يعلموا سوى القليل حول الشقاق الذى نشب بين المسلمين، فقد رأوا أن من يستسلمون قد دعتهم الحاجة والخوف إلى ذلك؛ حيث ألفوا أنفسهم وسط جيشين معاديين، فى الوقت الذى لم يعد بمقدورهم الصمود بين الجبال، نظرًا للبرد القارس وهطول الثلوج الكثيفة.

كتب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس رسالةً ثانيةً إلى ابن أمية تتفق ورسالته الأولى. فقال له فيها إنه يأسى كثيرًا لإقدام فارس فى مكانته وحسن إدراكه على سلوك نهج يجلب الهلاك على نفسه وعلى الأمة الموريسكية بأسرها. وهو انطلاقًا من إشفاقه على شخصه وأصله النبيل، ينصحه بوصفه صديقًا له أن يصلح ما بدر منه بالخضوع التام إلى رحمة جلالة الملك؛ لأن الوقت ما زال سانحًا للقيام بذلك. وهو يؤكد له أن هناك مجال من جانب الملك للتعاطف معه، فهم ملك رحيم للغاية، حيث لن ينظر إلى خطئه، بل إلى الندم الذى يبديه. وعليه أن يترك ذاك الوهم الزائف الذى لا سبيل إلى تحقيقه، بما له من وقع كريه على مسامع مولاه ومليكه الشرعى، ليتخذ حلاً عاجلاً لتلك المسألة؛ وهو ما سيعود عليه بنفع عظيم، لأنه عرف من ماركيز مونديخار أنه سيلح فى التشفع له. إلى هنا تنتهى فحوى الرسالة التى وصلت إلى يدى ابن أمية فيما بعد، والتى أدهشته إلى حد كبير وجعلته شبه عازم على الاستسلام، لو كان قد حزم أمره ما بين الخوف والرجاء، ولم يُعمِ عينيه حادث آخر سنسوقه لاحقًا.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول ذهاب معسكر ماركيز مونديخار إلى إنييّثا وباتيرنا لملاحقة الأعداء، والجهود التى بُذلَت لحمل ابن أمية على الاستسلام.

حينما تم تنبيه ماركيز بلش إلى وجود المسلمين فى باتيرنا، وإلى قيامهم بحشد ما يربو على ستة آلاف رجل، ينتمى غالبيتهم إلى سند وادى آش، وإلى تمركزهم على تبة إنييّثا - التى تقع على مسافة نصف فرسخ من باتيرنا - مظهرين رغبتهم فى الدفاع عن ذلك الممر. على الرغم من أن طريق الصعود كان يتسم بالوعورة والصعوبة الشديدة، على نحو بدا وكأنه لن يُمكّن سوى القلة من الدفاع بعض الشيء عن ذاك الموضع، فإن الماركيز كان يرغب فى استكمال مسعاه قبل أن يُزيد المسلمون من تحصيناتهم. قام رجالنا باستطلاع موقع العدو، الذى كان يتميز بتوفر مخرجين يتيحان له فرصة التراجع: أحدهما يفضى إلى جبل شلير - ولم يكن بمقدورنا حرمانهم منه لوجوده خلف ظهورهم، كما أن طبيعته لا تسمح للخيول أن تطأه- ، أما الآخر فكان عبر جبل غادور باتجاه البحر، وكان يتعين على المسلمين اجتياز سهل شاسع يقع ما بين باتيرنا وأندرش لبلوغ ذاك المنفذ.

أمر ماركيز مونديخار كلاً من غونثالو تشاكون ولورينثو دى لِيّبا أن يتجها صوب كودبا - وهى إحدى البقاع التى خضعت بالفعل - مع سرايا الخيالة التى ترافقهما، بالإضافة إلى ثلاثمائة من الرماة تحت إمرة القائد ألبارو فلوريس، وذلك لاصطحاب المسيحيات الأسيرات الموجودات هناك، قبل أن يُقدِم المسلمون المحاربون على قتلهن أو حملهن إلى وجهة أخرى. كما أصدر تعليماته بالتزود بالمؤن والذخيرة الكافية

لتسيير كافة الجنود. وانطلق من أوخيخار، في يوم الأربعاء الموافق السادس والعشرين من شهر يناير، يصحبه الجيش بأكمله عقب انتظام صفوفه، على الرغم من أنه كان ينقصه العديد من الجنود الذين كانوا قد رجعوا إلى ديارهم أثناء الفوضى التي دارت في خوبيليس.

حينما دنا من بلدة تشيرين Chirin، التي تقع على مسافة قريبة من أوخيخار، قدم إليه ثلاثة مسلمون يحملون راية السلام البيضاء، وسلّموه رسالة من ابن أمية قال فيها إنه سيسعى لحمل الثوار على الاستسلام، وإن ذلك الأمر ينطبق عليه هو أيضًا. وهو يطالب ببعض الوقت للقيام بذلك. وأثناء اضطلاعه بتلك المهمة يجب على الماركيز ألا يسمح للجيش بالمضي قدمًا في مسيرته، حتى لا تعرقل الاضطرابات التي ستسود الأراضي مسألة إرساء السلام. وقد رد الماركيز على ما تقدم بقوله إن ما ينبغي عليه القيام به، وأكثر أمر سيعود عليه بالنفع، هو أن يعجل بالمجيء والخضوع التام لمشيئة الملك، هو وكل من في حوزته من رجال وأسلحة وألوية، وليدع البقية تهتم بشئونها، وأنه في حال تنفيذه لما يتعين عليه القيام به من جانبه، فإن الماركيز سيكون خير شفيع له، وهو ما سيشهده ابن أمية من أفعاله. لكنّه إذا ما تأخر في اتخاذ قراره، فليدرك أنه لن يمسي هناك مجالٌ للرأفة بحاله.

حمل المسلمون الثلاثة على سبيل الإجابة تلك الكلمات المصحوبة بخطابين، قام بكتابتهما كل من السيد لويس دي كوردوبا والسيد ألونسو دي غرانادا بينيغاس، وهما يرجوان فيهما ابن أميه أن يأخذ بالنصيحة الجيدة التي أُسديت إليه. بيد أن ذاك الأمر لم يثنِ الجيش عن المضي قدمًا، ليستكمل مسيرته رويدًا رويدًا كما عهد دائمًا. لم يمض وقت طويل حتى أتى مسلم أخر برسالة أخرى من ابن أمية ذاته، استجابةً لما كتبه إليه السيد ألونسو دي غرانادا بينيغاس من أوخيخار(*). وقد أعلمه فيها أنه

(*) انظر الفصل السابق. (المترجمة).

سيعمل بنصيحته ويسلّم نفسه، ورجاه أن يخبره بالترتيبات التى سيتبعها لملاقاته (ثلاثة أشخاص فى مقابل ثلاثة) لإتمام الأمر، والاتفاق على التأمينات التى يجب مراعاتها. فى أعقاب ذلك عرض السيد ألونسو بينيغاس تلك الرسالة على ماركيز مونديخار، وتضرع إليه لكى لا يغادر الجيش بلدة إنييثا فى تلك الليلة، وحتى يأذن له فى لقاء ابن أمية على النحو الذى يريده. وقد راق حديثه للماركيز، وسمح له بالقيام بذلك. فعاد الرسول المسلم إلى باتيرنا حاملاً ذاك الرد.

كان الماركيز عازمًا على عدم التوقف حتى يبلغ الأعداء، فوافق على ضوء تلك الحادثة على البقاء فى إنييثا. حتى يتسنى للجيش المبيت، كان من الضرورى أن يقوم ذراعا الرماة بالتمركز أمام المخيم للاضطلاع بدوريات الحراسة، كما جرت العادة فى أوقات الحروب. ظن المسلمون - الذين كانوا يرقبون الموقف من أعلى التبة وأعلى الطريق، فى تشكيل مكون من كتيبتين قوام كل منهما ثلاثة آلاف رجل- أن الجيش بأسره يلتف حولهم، خاصةً حينما شاهدوا الرماة المسيحيين يعتلون الجبل فى اتجاه المنفذ الذى يؤمن تراجعهم. لم يكن الجيش قد استقر فى المخيم بعد، حيث أراد الماركيز العودة للمبيت فى بلدة إنييثا - التى كان قد غادرها بالفعل - حينما بالغت الذراع اليسرى للجيش، التى يترأسها كل من القائد خوان دى لوخان Juan de Luján وقائد الجند بيدراثا Pedraza، فى تسلق الجبل، حتى أنها قامت ببعض المناوشات مع سرية الخيالة التابعة للمسلمين المتمركزين فى تلك البقعة. فيما بعد توجهت فرقة من الرماة لإغاثتهم، وتمكن رجالنا من حملهم على هجر موقعهم والهروب.

فى الوقت الذى بدأت فيه المناوشات، كان ابن أمية قد فرغ لتوه من قراءة رد الماركيز، وكان قد باشر فتح الرسائل الأخرى التى يحملها بين يديه تمهيداً لقراءتها. حينما رأى المسيحيين يصعدون أعلى الجبل، بينما يلوذ رجاله بالفرار على نحو مخز، أدرك أن كل ما كان السيد ألونسو بينيغاس بصدده هو خداعه! فألقى الرسائل على الأرض، وامتطى صهوة الفرس على وجه السرعة، ليهرب هو أيضاً عائداً إلى الجبال، ويخلّف وراءه أسرته. وقد تبعه فيما بعد بقية الأناس الأشرار، وكان كل واحد منهم

يسعى للحفاظ على نفسه. كانت ذراعا جيشنا قد انتشت إلى حد كبير بالنصر الذى تحقق، وكان لابد لهم من حث الخطى للحاق بابن أمية. وقد أجبروه على التخلى عن فرسه، فتوغل سيراً على الأقدام فى البقاع الأشد وعورة، ولم يرافقه سوى خمسة من المسلمين ممن رغبوا فى اتباعه؛ كما قام أحدهم بعقر جواده حتى لا ينتفع به المسيحيون. سار باقى الرجال على نهجه، بعد أن دب فى نفوسهم الخوف من غضب رجالنا. فاستمر الجنود فى مطاردتهم، وقتلوا منهم الكثير، كما سبوا عدداً كبيراً من النساء وغنموا الكثير من الثياب[١٩]. وقد واصل نفر منهم تقدمه، حتى اقتحموا باتيرنا؛ وأسروا والدة ابن أمية، وأخواته، وزوجته غير الشرعية[٢٠]، والكثير غيرهن من المسلمات؛ وأطلقوا سراح ما يزيد على مائة وخمسين امرأة مسيحية كن أسيرات لديهن.

أما ماركيز مونديخار، الذى كان لا يزال يتريث إلى أن يتحقق لرجاله ما أرادوا، فإنه إبان رؤيته الوقع الذى أحدثوه، سار ومعه رايته متصدراً الموكب حتى بلغ غابة من أشجار البلوط تشرف على البلدة من عل. ثم أوقف المسيرة، وأمر الرجال بالعودة إلى إنييثا ليعسكروا بها. وقد توجه فى اليوم التالى إلى باتيرنا دون أن يتعرض لأية معوقات فى الطريق. دار العديد من الأحاديث بصدد إيقاف الماركيز للركب عند ربوة الأشجار، كما هو الحال دوماً مع من يحكمون على الأشياء وفقاً لأهوائهم، دون أن يفطنوا إلى حكمة قادتهم. فقال بعضهم إن ذاك التوقف قد أعاق إنهاء الحرب فى ذاك اليوم، وانتزع من بين أيديهم فوزاً محققاً؛ وإن إيقاف الجنود كان الغرض منه هو عدم إجهازهم على المسلمين تماماً، لما كان لهم من نفع كبير فى المملكة فى أعقاب إخضاعهم. بينما أدرك آخرون الهدف مما حدث، ومشيئة صاحب الجلالة، التى تمثلت فى إخضاع المملكة بأقل قدر ممكن من الخسائر بين رعايا جلالته، فأقروا ببصيرتهم النافذة الإجراءات التى تم اتباعها.

(١٩) مرة أخرى نلاحظ أهمية الثياب. (المراجع).

(٢٠) هى زوجة غير شرعية من وجهة نظر الكاثوليك، أما من وجهة نظر المسلمين فهى زوجة ثانية. (المراجع).

الفصل الخامس والعشرون

كيف انطلق الجيش من باتيرنا إلى أندرش، وعودته إلى أوخيخار لشن حملة على غواخاراس.

بات معسكرنا فى باتيرنا فى تلك الليلة، حيث تزود الجنود بكميات وافرة من الدقيق، والزيت، والجبن، واللحم، والشعير، كان المسلمون قد تركوها فى ديارهم، وكان ما تناولوه يقل كثيراً عما أهدروه. وفى اليوم التالى، الموافق الجمعة الثامن والعشرين من يناير، توجه الجيش للإقامة فى قصور أندرش، التى تواجد بها بالفعل ألبارو فلوريس، والقادة الآخرون -الذين كانوا أقل موالاة من القدر الواجب عليهم التحلى به فى حالات مماثلة. كان الحسد هو الباعث لتباين الآراء، حيث أراد قادة ألوية الفرسان أسر كافة المسلمين والمسلمات الذين قدموا للالتجاء بمنازل الأهالى المستسلمين، وقالوا بأن الأمان الذى أُسبِغ على هؤلاء لا يشمل أولئك. أما ألبارو فلوريس، فقد خالفهم الرأى بمقتضى الأوامر التى أصدرها ماركيز مونديخار، والتى تقضى بالحفاظ على من استسلموا بالفعل، وعلى من قدموا بغية تسليم أنفسهم. وهكذا أمر ألبارو بألا يُمَس هؤلاء ولا أولئك، بل يدعهم المسيحيون لينعموا بالحرية فى بيوتهم دون مضايقات. ظفر ما يربو على ثلاثمائة امرأة مسيحية بحريتهن فى تلك المواضع الثلاثة: كودبا، والقصور، والفوندون. كما أسلم الخاضعون إلى ماركيز مونديخار طفلاً – هو ابن للسيد دييغو دى كاستيّا، سيد غور – كانوا قد أسروه فى البولودوى. وأخبروه أن الرجال الذين لاذوا بالفرار من باتيرنا مبعثرون فى أرجاء تلك الجبال، وأن غالبيتهم سيستسلمون لا محالة؛ وأعلموه بوجود حشد آخر اجتمع عند أوهانييث، معظمه من

الشيوخ والنساء والأطفال، الذين سيسلّمون أنفسهم كذلك، إذا ما أُرسل إليهم من يطالبهم بذلك.

هنا أصدر ماركيز مونديخار أوامره إلى السيدين فرانثيسكو دى مندوثا وخوان دى بيّاروّيل Juan de Villarroel لكى يتوجها إلى أوهانييث، فى يوم السبت الموافق التاسع والعشرين من يناير، وذلك على رأس ألف جندى ما بين راجل وفارس. بيد أنه أوقف تلك الحملة لاحقًا بعد أن فطن إلى مغادرة المقاتلين لذاك المكان، وإن تلك المسيرة لن تؤدى إلا إلى تمكين الجنود من سرقة الغنائم، وأسر أناس عديمى النفع، لم يحسنوا تقرير ما ينبغى عليهم القيام به نظرًا لسذاجتهم القروية. فيما بعد جمع الماركيز أهل المشورة ليبحث السبل الأكثر موائمةً لأوامر جلالة الملك، واتفق على أن أسلم الطرق لإخضاع الأرض فى سكينة يتمثل فى إقامة معاقل فى الأماكن الخاضعة، وخاصةً فى كل من: أندرش، وأوخيخار، وبيرخا، وبيتريس دى فيريّرة؛ وأن تُحمَل إليها كافة المؤن التى يمكن تجميعها من البقاع الأخرى، ويتم تجميع من يقدمون طواعيةً لتسليم أنفسهم؛ على أن تجوب الأراضى دوريات من الجنود من رجال المعسكر لملاحقة العنيدين. وقد صدرت الأوامر أن يتوجه ألبارو فلوريس لاحقًا، على رأس ستمائة من الجنود إلى جبل غادور، الذى قال الجواسيس إن العديد من المسلمين الذين فروا هربًا من الهزيمة على يد ماركيز بلش قد قصدوه، وذلك من أجل منع باقى الأهالى من تسليم أنفسهم، حتى لا يسود الهدوء فى تلك الأراضى.

كتب ماركيز مونديخار رسالةً من أندرش إلى ماركيز بلش، ليحيطه علمًا بما دار فى تلك الحرب. فأخبره كيف أن ابن أمية قد هُزِمَ أربع مرات، حتى أنه لم يجرؤ على البقاء فى البشرات؛ وإنه يسير مختبئًا من صخرة إلى أخرى يتبعه خمسون أو ستون رجلاً فقط. كما أنه يرى أن إقامة المعاقل، وإرسال ألف رجل من البواسل فى كتائب لتفريق بعض حشود العصاة الشاردين من العصاة، يفوق من حيث الأهمية تشكيل جيوش منتظمة الصفوف، وإنه ارتأى أن يسلك ذاك النهج، وهو ينبهه إلى ذاك الأمر حتى يبعث له برأيه، بما يتوافق مع الأوامر الصادرة إليه من جلالة الملك. كان ما يرمى

إليه الماركيز من وراء ذلك كله، أن يفطن ماركيز بلش إلى أن مسألة الحرب قد انتهت بإخضاع الثوار، فيعزف عن مواصلة خوض المعارك. وقد أجابه الرجل فيما بعد من أوهانييث بما يتعارض ومسعى ماركيز مونديخار، مع أنه يتفق معه فى نفس الهدف، الذى يتمثل بالنسبة له هو فى إنهاء الحرب عن طريق إعمال القوة.

فى تلك الآونة كان قد تجمع فى أرجاء غواخاراس - التى تقع فى نطاق أراضى سالويرينيا - العديد من مسلمى البقاع المتاخمة، وذلك فى كنف جبل منيع يوجد عند قمة غواخار العليا. من هناك باتوا يخرجون ليجوبوا الأراضى، ويداهموا الحقول والطرق الكائنة فى بقاع الحامة، ووادى آش، وغرناطة؛ حيث قتلوا المشاة، وأحرقوا البيوت الريفية الموجودة فى المزارع، واستولوا على الماشية. تلك الغارات وغيرها مما قام به المسلمون فى شتى الأرجاء أثارت غضبًا عارمًا لدى مستشارى جلالة الملك المقيمين فى غرناطة، وكذلك الأهالى، حيث بدا لهم أن كل ما قاله المسلمون حول الاستسلام كان على سبيل الخدعة، بغية إلهاء المسيحيين وطمأنتهم؛ فهم من أحد الجوانب يُظهِرون رغبتهم فى الخضوع، وعلى الجانب الآخر يخرجون للسرقة وقطع الطريق.

حينئذ ارتاب ماركيز مونديخار فى أنه إذا ما تأخر كثيرًا فسوف يُوكل ذاك الشأن إلى قائد آخر. على الرغم من تنبهه إلى أن ولده - كونت تينديّا ذاته - يرغب فى الخروج للقيام بتلك الحملة، فإنه عقب انتهائه من مهمته فى تلك المنطقة، قفل عائدًا أدراجه إلى أوخيخار، وأرجأ إقامة المعاقل إلى حين إخضاع أراضى غواخاراس. مكث الماركيز فى تلك الأرجاء طوال خمسة أيام، أعد فيها العدة للحملة التى سيشنها، وخلّص المعسكر من الأناس عديمى النفع[٢١]، الذين كان دورهم الوحيد هو إعاقة المسير والتهام المؤونة. كان بين الأمور الأخرى التى أقرها إصداره الأمر بتسليم ألف

(٢١) يقصد كبار السن والأطفال وغير المقاتلين. (المراجع).

موريسكية، كن قد بقين على قيد الحياة فى خوبيليس وأسرن لاحقًا في باتيرنا، إلى ثلاثة من الحجّاب المستسلمين الذين كانوا فى المعسكر، وهم: ميغيل دى إيريرا حاجب بيتريس دى فيريرّة، وغارثيّا البابا García el Baba حاجب أوخيخار، وأندريس الأدروتي Andrés el Adrote حاجب نيتشيتي. وقد تم تسليمهم على يد الكاهن القانوني توريّخوس، الذى أمر بإرجاعهن إلى أزواجهن، وآبائهن، وأخواتهن، وإخطارهم بالتحفظ عليهن حتى إعادتهن متى وكيفما تتم المطالبة بذلك. حضر ألبارو فلوريس إلى ذلك المعسكر، بعد أن جاب أرجاء جبلى غادور ونيخار، دون فائدة تذكر. كما قدم القائد خوان ريكو Juan Rico برفقة ثلاثمائة من المشاة كان ماركيز قمارش قد أرسلهم على نفقته الخاصة للمشاركة في تلك الحرب.

الفصل السادس والعشرون

يتناول انطلاق ماركيز بلش من معسكره باتجاه أندرش، وانتصاره على المسلمين الذين كانوا قد احتشدوا فى جبل أوهانييث.

منذ يوم التاسع عشر من يناير، وهو التاريخ الذى وصل فيه ماركيز بلش إلى فيليكس، لم يبرح القائد المعسكر أو يفعل شيئًا يُذكر؛ بل كان ينتظر - حسب أقواله - إلى أن يرتاح الجنود والخيول من عناء الطريق. بحلول يوم الثلاثين من ذات الشهر، تحرك الماركيز ليُحدث بعض الأثر، على ضوء الرسالة التى وصلته من جلالة الملك، والتى ينبهه فيها إلى أن الثوار قد أرسلوا فى طلب الغوث من بلاد المغرب؛ كما أن جلالته لديه معلومات أكيدة مفادها أن الثوار ستصلهم سفن من الجزائر وتطوان محملة بالرجال والذخائر، وقد ارتأى جلالة الملك أنه من المناسب أن يتم تنبيه الماركيز إلى ذلك الأمر. كان الماركيز يود الذهاب إلى جبل إينوكس، بعد أن وردته أنباءٌ عن وجود عدد لا بأس به من الأعداء، ممن حشدوا صفوفهم لتكوين جبهة مع مقاتلى نيخار وسائر أرجاء المقاطعة. لكنه أُحيط علمًا بدخول السيد فرانثيسكو دى كوردوبا Francisco de Córdoba، نجل السيد مارتين دى كوردوبا Martín de Córdoba - كونت ألكاوديتى Alcaudete - إلى ألمرية منذ ثلاثة أيام، تنفيذًا لأوامر جلالة الملك، حيث ذهب إلى هناك برفقة قوات المشاة والسفن التى كانت تحت إمرة خيل دى أندرادا. فلمّا بدا له أنه لا يوجد ما يقوم به فى تلك الناحية، قرر - لكى لا يبق دونما يفعله - أن يعود أدراجه إلى أندرش، أو من الأفضل أن نقول أوهانييث، وهو المحل الذى اجتمع فيه

أولئك المسلمون الذين أتينا على ذكرهم فى الفصل السابق؛ حيث لم ترده تحذيرات من ماركيز مونديخار فى ذاك الصدد، أو عقب تجاهله لتنبيهات الماركيز.

وصل الماركيز إلى كانخايار، وهى إحدى بقاع لوتشار، فى يوم الحادى والثلاثين من شهر يناير، مدفوعًا بذاك الباعث. حينما رجع إليه جنود الاستطلاع، الذين يتقدمون الركب، لإخباره برؤيتهم لأعداد غفيرة من المسلمين عند إحدى ربوات جبل شلير، على مقربة من بلدة أوهانييث، أمر بالإتجاه صوبهم فى اليوم التالى، وكان موافقًا لعشية عيد دخول السيد المسيح إلى الهيكل(*). كانت صفوف الجيش غايةً فى الانتظام، بما يتناسب وتضاريس الأرض التى تتسم بالوعورة. وقد ابتعدوا مسافة فرسخ عن النهر، ليسلكوا السفوح والتلال التى يصعب أن تطأها الخيول، حتى لحقت طليعة جيشنا بمؤخرة الأعداء فى موضع يفوق المحل الأول وعورةً وانحدارًا؛ لأن المسلمين إبان رؤيتهم لمعسكرنا، صعدوا إلى أعالى الجبل. حيث أودعوا النساء والمتاع فى المقدمة، ليبقى المحاربون فى المؤخرة، امتثالاً لأوامر قائدهم تاهالى **Tahal?**، الذى تصدى لرجالنا فى استبسال، واتخذ وضع المعركة، حيث ارتفعت الرايات، ودوت أصوات الطبول والأبواق وصيحات الحرب لتصم الآذان فى أرجاء تلك الأودية. وشرع القائد فى حث رجاله على القتال بتلك الحجج: "هلموا يا إخوتى، أيها المحاربون الشجعان! لا يكونن حرصكم على الانتصار أقل من رغبتكم فى تحرير أنفسكم، ونسائكم، وأولادكم من القتل والسبى. يا من تزعمون أنكم قمتم بالثورة من أجلى، قاتلوا فى هذه الموقعة! فلتزيلوا هذا العناء عن كواهلكم، ولن يتسنى لكم ذلك إذا منيتم بالهزيمة، فما من مهزوم يلقى مصيرًا عادلاً، لأن القاضى الذى يقرر هو العدو الظافر".

(*) عيد تحتفل به الكنيسة فى الثانى من فبراير/شباط من كل عام، إحياءاً لذكرى دخول السيدة العذراء حاملةً ابنها إلى الهيكل لتقديمه، عقب مرور أربعين يوم على ميلاده. انظر Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, vigésima primera edición, Madrid 1992, tomo II, Pág. 1699 (المترجمة).

لم ينتظر الهمجيون المتحمسون - سالذين كانت التضاريس تصب فى صالحهم - إلى حين قدوم رجالنا، حيث استنفرت الكلمات التى وجهها لهم المسلم هممهم. على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً بكثير وأسوأ تسليحًا من رجالنا، فإنهم عمدوا إلى سرايا الخيالة التابعة لنا، وأغاروا عليهم من الجهة اليسرى، كما بادروا بالهجوم من جهات متفرقة فى آن واحد.

كان ذلك هو الموضع والمحل الذى حشد فيه المسلمون قواهم فى عزم شديد، بشكل أتيح لهم الدفاع عن أنفسهم، ولكنّه كان فألاً سيئًا بالنسبة لهم؛ لأنهم كانوا قد اجتمعوا هناك إبان الثورة السابقة، التى قاموا بها أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين، وكانوا قد حوصروا وطوردوا على يد كونت ليرين، إلى أن قضى عليهم الجوع؛ ولذا كان يُدعى الكوسار دى كانخايار el Cosar de CanjEáyar، وهو ما يعنى بلغتنا محل الجوع[٢٢]. بلغ تعداد المسلمين حوالى ألفى رجل مقاتل، بالإضافة إلى الأشخاص غير المقاتلين، وكانت أعدادهم كبيرة، أما جنودنا فكان قوامهم خمسة آلاف راجل، وألف ومائتى رام، وما يربو على ثمانمائة قوّاس. كان الآخرون مسلحين بالرماح، والسيوف، والرماح ذات الرأس التى تشبه البلطة، والتروس الدائرية، وأربعمائة جواد مصطفة على أكمل هيئة. قاوم ماركيز بلش ومن معه من الجنود زخم الأعداء، الذى كان عارمًا؛ وأثناء صعوده من أسفل إلى أعلى، خاض معركةً حامية الوطيس ودامية، بدأت طليعتنا تضعف خلالها، حيث كان المسلمون يحاربون فى عزم راسخ مستخدمين طلقات البنادق، ونصال السهام، والأحجار، وكانوا فرحين لا يرهبون بذل أرواحهم فى مقابل الإجهاز على من يواجهونهم. كان يتعين على ماركيز بلش أن يتصدى بنفسه للخطر العام، وقد رافقه العديد من الفرسان، وكانوا أشخاصًا بواسل، تمكن الماركيز بواسطتهم من إنقاذ وإصلاح زلل جنوده، وذلك من خلال الإغارة على الأعداء من

---

(٢٢) فى اللغة الدارجة "كِسرة" تعنى لقمة صغيرة وجمعها "كُسَر"، وهو دليل على قلة الخبز. لاحظ عدم دقة اللغة العربية عند مارمول. (المراجع).

الجانب الأيمن. حارب الماركيز ضد الأعداء، وضد وعورة الأراضى، حيث لم تقل مقاومة الأرض له عن مقاومة المسلمين؛ لكن الماركيز هزمهم وحملهم على الهرب، كما إنه ضيق عليهم على نحو لم يسمح لهم بإعادة تنظيم صفوفهم، حيث بات يلاحقهم لمسافة تربو على فرسخ، صعوداً إلى أعلى الجبل، فى منطقة كان يبدو من المستحيل على الخيول أن تطأها.

مات فى ذاك اليوم ألف من المسلمين، وفُقِدت الكثير من الرايات، كما أُسِر ألف وستمائة روح ما بين نساء وأطفال. وكان الفيء، المكون من الثياب والحلى الثمينة، والماشية، وفيراً للغاية. نالت ثلاثون مسيحية كن أسيرات حريتهن، حيث كان الأعداء قد نحروا فى قسوة وحشية فى اليوم السابق عشرين أخريات، كان بينهن فتيات حسناوات نبيلات، كانت المسلمات أنفسهن قد قضين عليهن، وكلن لهن ألف صنف من القدح والذم. بيد أن فعلتهن لم تمر دونما عقاب، حيث قتل الجنود بعضهن أثناء المعركة، والبعض الآخر خلال المطاردة. وهو الأمر الذى تأسى له الجنود، فهن نساء، على الرغم من أنهن مسلمات؛ وهو الشعور الذى انقلب فيما بعد إلى غضب حينما أدركوا الشرور التى كن قد اقترفنها. لاذ المسلمون بالفرار على إثر تلك الهزيمة: فتوغل بعضهم فى الجبال، بينما لجأ أخرون إلى كهوف منيعة للغاية موجودة على ضفاف ذاك النهر؛ وهناك شرعوا فى المقاومة، وكل من أُسر منهم، ولم يجسر على التقدم للموت فى خضم المعركة، تم شنقه. أما المسيحيون، فقد منوا ببعض الوفيات، وجرح منهم كثيرون: إما بطلقات البنادق، أونصال الرماح المسممة؛ كما أُصيب آخرون بضربات الحجارة، وطعنات الخناجر، وكانوا عرضةً للخطر الشديد من جراء ذلك.

فى أعقاب إحراز ذاك الانتصار، خيم معسكرنا فى أوهانييث، التى جرت فيها احتفالات السيدة العذراء المجيدة فى اليوم التالى، فى مهابة كبيرة. حيث ذهب ماركيز بلش، وكافة الفرسان، والقادة إلى الموكب مسلحين بكامل أسلحتهم؛ يحملون فى أيديهم شموعًا بيضاء، أُرسِلت إليهم من ديارهم من أجل ذاك اليوم. وسارت المسيحيات جميعهن فى المنتصف، وهن يرتدين الملابس الزرقاء والبيضاء؛ وكان

الماركيز قد أمر بكسوتهن على تلك الشاكلة على نفقته الخاصة؛ لأن تلك هى الألوان التى أُضفِيت على تمثال السيدة العذراء. سار الموكب بين الفصائل المسلحة، التى أطلقت أعيرة بنادقها لتحيته فى صورة بديعة للغاية، ودلف إلى الكنيسة أثناء غناء الكهنة والقساوسة لأنشودة "الشكر للرب"، وتمجيدهم للرب فى ذاك المحل الذى كفر به فيه المارقون. أتبع ذلك النصر أن تصور ماركيز بلش لاحقًا، أنه إذا ما غادر ماركيز مونديخار - الذى لم يكن يرغب فى إضاعة المزيد من الوقت فى البشرات - تلك الأراضى، على ضوء الإرهاق الشديد الذى يعانى منه الرجال والجنود، نظرًا للطريق الطويل والوعر الذى قطعوه؛ وكذلك لما كان يظنه الماركيز من أن كل الأمور قد انتهت، فإنه سيستطيع هو وجيشه -الذى كان قد استرد عافيته ونشاطه عقب الراحة التى قضاها فى أوهانييث- الدخول إليها فى أية مناسبة، وتولى زمام تلك الحرب حتى يُنهيها على يديه. وهو ما تحقق له فى نهاية الأمر، وإن لم يكن فى تلك المرة؛ لأن غالبية الجنود تركوا الحملة بالأمتعة؛ فاضطر الماركيز إلى سحب معسكره من أوهانييث، والعودة إلى تيركى عبر مارتشينا. وقد توقف هناك لعدة أيام، حتى عبر بعد ذلك إلى بيرخا. انطلاقًا من ذاك المقصد، كتب إلى ماركيز مونديخار ردًا على الرسالة التى بعثها إليه من أندرش، أخبره فيها أن المسلمين الذين هربوا على إثر الهزيمة التى مُنيوا بها فى أوهانييث كثر. وهو يعتقد أن الأمر يستلزم أكثر من فصائل للقضاء عليهم، وعليه أن يقوم من جانبه بما يقدر عليه؛ لأنه من ناحيته سيقوم بدوره أيضًا.

الفصل السابع والعشرون

يتناول كيفية إغارة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا على معقل جبل إينوكس.

دخل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى ألمرية، أثناء وجود قوات ماركيز بلش فى فيليكس. وقد تم تنبيهه إلى قيام حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث، ونفر آخرون، بتأمين جبلٍ حصينٍ يقع فى أعلى بلدة إينوكس، والزج بأنفسهم بداخلها بصحبة نسائهم والكثير من الذخائر؛ وإنه يرافقهم مسلمون من بلاد المغرب والأتراك، كانوا قد قدموا فى تلك الأيام فى بعض قوارب الاستكشاف، حيث لم يرسلهم ملوكهم، بل إنهم مغامرون. وكان هؤلاء قد قبضوا منذ فترة وجيزة على أحد الجواسيس الذين أرسلهم السيد غارثيا دى بيّارويل، فلقى على أيديهم ميتةً قاسيةً، بعد أن سفّدوه فى سيخ حديدى.

عندئذ رغب السيد فرانثيسكو فى القيام بتلك الحملة. وعندما تراءى له أن قلة أعداد الرجال بالمدينة لا تتيح له أخذ البعض وترك البعض، كتب إلى ماركيز بلش فى فيليكس حتى يمده ببعض الرجال، وفقًا للتعليمات التى وردته من جلالة الملك فى ذاك الشأن؛ لأنه حينما صدرت الأوامر إلى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بالتوجه إلى ألمرية ودخولها، وأُوكِل إليه حماية تلك المدينة، تم تنبيهه إلى أن ماركيز بلش لديه أوامر بتزويده بالرجال وبكل ما يلزمه. بيد أن الماركيز لم يجبه سواء بالإيجاب أو الرفض. لمّا أدرك السيد فرانثيسكو دى كوردوبا أن الماركيز لا يمكن الاعتماد عليه، بعث برسالة إلى بدرو أرياس دى أبلا، المأمور القضائى لوادى آش؛ كما قام بتحذير جلالة الملك إلى أن الأعداء ينتظرون قدوم اثنتى عشرة سفينة خلال ساعات تقل سبعمائة من الأتراك؛

ويعث إليه برسالة كتبها أحد المسلمين إلى موريسكى من ألمرية باللغة العربية(٢٣)، يقول فيها إن ابن أمية قد أرسل رجلين مسلمين إلى الجزائر لطلب النجدة.

انطلق الرسل من ألمرية فى مساء يوم الثامن والعشرين من يناير. وفى اليوم التالى وصل خيل دى أندرادا إلى الشاطىء، فى صحبة تسع سفن، وكميات كبيرة من الذخيرة لتأمين المدينة. فأخبره السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بما جرى فى إينوكس، وطلب منه ثلاثمائة جندى، لكى يرافقوه هم ورجال تلك المدينة لشن تلك الحملة، فمنحه إياهم، وكان على رأسهم السيد خوان ثانوغيرا Juan Zanoguera. لكنهم اختلفوا فى بادىء الأمر حول الطريقة التى ستُقَسّم بها الغنائم، ويُستَخرج منها الخمس والمعشار. حيث كان الجشع هو الخطيئة الأبرز ضمن الآثام التى اقترفناها على مدار تلك الحرب(٢٤)، وهو ما شاب جلال الانتصارات التى حققناها. بيد أنهم اتفقوا فى نهاية الأمر على تقسيم الفىء إلى جزئين: أحدهما يحصل عليه أهل المدينة، والآخر يأخذه القادمون بحراً، وذلك فى أعقاب استقطاع الخمس والمعشار للقائد العام.

تزود الرجلان لاحقًا بكل ما يلزمهما خلال الطريق، وغادرا ألمرية فى ذاك المساء؛ حيث كانا يظنان فى إمكانية شن الغارة على إينوكس مع بزوغ فجر اليوم التالى، والعودة إلى المدينة بحلول الليل. بيد أن ذلك لم يمس ممكنًا؛ لأن الدليل أخذ يدور بهم، وحينما صاروا على مشارف منطقة تمركز الأعداء، كانت الساعة قد أضحت التاسعة من صباح يوم الأحد، الموافق الثلاثين من شهر يناير. كان مدخل ذلك الجبل غايةً فى الوعورة وصعوبة التضاريس، حتى إنه كان يبدو من المستحيل إمكانية اقتحامها عنوةً، فى ظل وجود من يدافع عنها. كما أن هناك جبل أخر يعلوها، وهى تعد بروزًا ناتئًا منه، مما عمل على تأمينها من تلك الجهة، التى كان بها منحدر مكّون من أحجار

(٢٣) نفهم من هذه الفقرة أن الموريسكيين كانوا يكتبون بالعربية حتى أواخر فترة وجودهم فى إسبانيا (المراجع).

(٢٤) مرة أخرى يمارس مارمول النقد الذاتى. (المراجع).

وصخور شديدة الوعورة، حيث لم يكن هناك سوى ممر ضيق للصعود أو النزول من إحدى الناحيتين إلى الناحية الأخرى. اجتمع قائدانا للتشاور، والتوصل إلى النهج الذى يتعين عليهما أن يسلكاه، بعد أن شاهدا المسلمين متمركزين فى تلك المواضع شديدة التحصين؛ لكن كان هناك خلاف فى وجهات النظر بين الفريقين. أما من كانوا يرغبون فى المماطلة، فقد رأوا أنهم تركوا المدينة والسفن عرضةً للخطر، وأضافوا إلى ذلك العديد من الأسباب الأخرى، التى كانت تبدو لهم كافيةً للتخلى عن الحملة، والرجوع للاضطلاع بالشؤون التى تركوها. إلا أنهم فى النهاية حزموا أمرهم، واتفقوا على إرجاء مهاجمة ذلك الموقع المنيع إلى اليوم التالى؛ لأن الوقت أمسى متأخرًا، وكان الرجال يرون أنه من الأفضل الشروع فى الأمر فى الصباح.

حتى لا يكون السيد فرانثيسكو دى كوردوبا قد آلى جهدًا فى هذا الصدد، وانطلاقًا من رغبته فى إدراك نية المسلمين، وإذا ما كانوا سيخضعون له دون قتال، أرسل إليهم أحد الموريسكيين المعاهدين لينبههم إلى ذاك الأمر. فأخبرهم أنهم إذا ما هدأوا ورجعوا إلى ديارهم، وتخلوا عن أسلحتهم وخضعوا إلى رحمة جلالة الملك، فإنه سوف يتشفع لهم حتى لا تُساء معاملتهم. بيد أن الهمجيين المتشككين والنزّاعين إلى الريبة، نصحوا بعضهم بعضًا بعدم الوثوق فى عدوهم؛ وحسبوا أن الموريسكى قد قدم إليهم بتلك الذريعة للتجسس عليهم ورؤية ما لديهم من تحصينات؛ فاعتقلوه وقتلوه بوضعه على الخازوق، وعلقوه على صخرة مرتفعة على مرأى من رجالنا. كان نهار ذاك اليوم قد طلع صافيًا وهادئًا، ولكن بحلول المساء باتت الغيوم تتكاثر مما كان ينذر بعاصفة مصحوبة بالأمطار والرياح. فما كان من الجنود، الذين لم يرتدوا معاطف ولم يكن بحوزتهم ما يتدثرون به، نظرًا لرغبتهم فى أن يكونوا سريعى الحركة، إلا أن توجهوا للاحتماء بديار بلدة إينوكس، وذلك بعد أن قاوموا لفترة طويلة، فى انتظار انتهاء وابل الأمطار الذى انهمر واحدًا تلو الآخر. لم يكد الجنود يفرغون من الدخول إلى البيوت، حتى انطلقت صيحات حمل السلاح فى عجالة؛ حيث شُوهِد قدوم أفواج من المسلمين مباشرةً صوب المنازل ذاتها. وقد بدوا، فى تلك الأجواء القاتمة، أكثر

عدداً مما كانوا عليه. حيث لم يتعدوا ثلاثين رجلًا، وكانوا قد أتوا دون أن يعلموا بوجود مسيحيين فى تلك البلدة، بعد أن فروا من معسكر ماركيز مونديخار. حينما اقتربوا من الموضع الذى يسير فيه ثلاثة رجال انفصلوا عن الركب، قتلوا واحداً منهم، قبل أن يتعرفوا على هويتهم. فلمّا أدركوا الخطر المحدق بهم، عادوا أدراجهم إلى الجبل. وقد طاردهم السيد غارثيًا دى بيّارويل، ولكنه تأخر فى الخروج وسار ببطء. وكان الأثر الذى أحدثه هو استعادة فتاتين مسيحيتين، وهما ابنتا أحد أهالى ألمرية، وأحد أبناء حاكم بولودوى؛ وكانوا أسارى لدى المسلمين.

فى ذلك اليوم، رغمًا عن تلك الأجواء العاصفة الشديد، أمر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بتحرك الأمتعة إلى المدينة للتزود بالمؤونة. وقد رافق الركب السيد غارثيًا دى بيّارويل على رأس مائتين من رماة كتيبته، حتى أضحوا على مسافة ربع فرسخ منها؛ وكان يوجد فى ذاك الموضع ممر يتعين على الأعداء عبوره، إذا ما رغبوا فى الانتقال من ملجأهم إلى الطريق الموصل إلى ألمرية. عندما أبصر السيد غارثيًا قطيعًا من الأغنام يسير فى أحد المنخفضات القريبة من معقل الأعداء مع بعض الرعاة، بعث بالسيد خوليان دى بيريدا ومعه ثمانية جنود للاستيلاء على جزء منه؛ مما خول للرجال إشباع حاجتهم البشرية للطعام فى تلك الليلة. فى صبيحة اليوم التالى، ارتاب القائد فى رغبة المسلمين فى تعويض تلك الخسارة، عن طريق الإغارة على المتاع حين عودته محملاً بالزاد؛ تمركز السيد غارثيًا دى بيّارويل فى ذات الممر بصحبة ستين راميًا وعشرين فارسًا. فى أعقاب عبور الأمتعة إلى المعسكر، أراد هو أن يستطلع قوى العدو، ويدرك إذا ما كان للعدو حشودٌ غفيرةٌ من الرجال المسلحين بالبنادق، وكنه الأتراك الموجودين معهم. فعبر الممر، وأصدر تعليمات إلى اثنين من قادة الفصائل لكى يصطحب كل منهما اثنى عشر جنديًا، ويسيطروا على طريقين للرعاة يتسمان بالوعورة، يقدر المسلمون على النزول من جبلهم عن طريقهما للوصول إلى الناحية الجنوبية، وهى الجهة التى يتواجد هو بها؛ لأنه لا يوجد مهبط آخر يتيح لهم الإغارة عليه دون اللجوء إلى الكثير من المراوغة. كما أوقف خوليان دى بيريدا Julián de Pereda

مع جنود المشاة الآخرين على مسافة مائتى خطوة إلى الوراء، على مقربة من الموضع الذى توقف فيه مع الفرسان، وذلك لتحميسهم وأصدر إليهم تعليمات حول ما ينبغى عليهم القيام به.

فى أعقاب ذلك هبط المسلمون من معقلهم، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. ولما كان تعدادهم يفوق خمسمائة رجل، فقد تسببوا فى تدحرج الأحجار الضخمة على رجالنا، الذين كانوا بمنأى عن ذاك الخطر؛ حيث كانت تحميهم صخرتان عظيمتا الارتفاع، فأضحت الأحجار والصخور تطير أعلى رؤوسهم دون أن تصيبهم. كما أن الموريسكيين لم يقدروا على النيل من رجالنا بالبنادق والسهام؛ لأن الأعيرة النارية باتت تمر من فوقهم، أما السهام فلم تكن تبلغهم. بل إنهم هم من تضرروا من رماتنا، الذين كانوا يطلقون عليهم النيران من الأسفل إلى الأعلى، مما جعلهم أفضل تأمينًا وأدق تصويبًا. عندما أُحبِطت تلك المناوشة، بدأ المسلمون - الذين أدركوا الوضع السيء الذى يواجهونه- ينتابهم القنوط، وعاد الكثير منهم فارين صوب الصخرة. حينئذ هب لنجدتهم قائد تركى مع بعض الجنود المسلحين بالبنادق، فأجبر من بادروا بالهرب من الاشتباكات على العودة بعدما تعقبهم بالعصى ، وحاصرهم بجنوده فى عزم ماض، وأخذ يصيح بهم قائلاً: " لم يكن هناك مغزى لمجيئى من إفريقيا لو كنت أعلم أن قلة من المسيحيين ستتصدى لى من خلف إحدى الصخور وسط ميدان القتال، بينما يوجد من حولى كل هذا العدد الهائل من الفتيان البواسل! هلموا يا أصدقائى، فلتتبعونى! فلنحقق النصر بالإطاحة برؤوس تلك القلة".

أثارت تلك الكلمات حمية الرجال، فوصلوا إلى الجنود المصاحبين لقادة الفصائل فى تصميم شديد. على الرغم من قلة عدد الجنود، فإنهم دافعوا عن موضعهم، وحملوا المسلمين على التخلى عن حالة الهياج التى انتابتهم. لم تفلح الكلمات، أو الأفعال، أو التهديدات التى وجهها لهم التركى؛ أو حتى ضربات العصى وطعنات الخناجر، التى كالها لمن يلوذون بالفرار من مواجهة رماتنا - الذين شكلوا جبهة موحدة - فى تحفيز الغوغاء الأشرار إلى النزول للقتال؛ إلى أن أبصروا مقدم أربعة فرسان وستة رماة،

كان السيد غارثيًا دى بيّارّويل قد أرسلهم إلى هوة أخرى تقع فى المنطقة الشرقية، مع ما يربو على ألفين من رؤوس الماشية والأغنام. عندئذ شنوا هجومًا فى عزيمة راسخة - تدفعهم المصلحة أكثر من خشيتهم من صلف القائد التركى - لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتباك بالأيدى مع رجالنا. فى نهاية الأمر، نظرًا لضيق سبل الرعاة، واحتلال الرماة لها؛ وهو ما جعلهم يصطفون فى مرمى رجالنا بطريقة طولية، ولا يتوقفون عن إطلاق النيران، اضطر الموريسكيون إلى التراجع بعد أن منيوا بخسائر.

عاد السيد غارثيًا دى بيّارّويل إلى إينوكس، وأشار إلى إن جيش الأعداء - من وجهة نظره - يضم عددًا قليلاً من الرماة؛ وإن مباغتتهم، قبل أن يهب لنجدتهم رماة من مكان آخر، سيكون أمرًا جيدًا. لم يكن هناك سوى عائق واحد، وهو عدم توقف العاصفة عن الهبوب، بل إنها كانت آخذةً فى الازدياد. بيد أننا إذا ما تدبرنا الأمر جيدًا، لأدركنا أنها كانت متعبة لهؤلاء وأولئك على النحو ذاته. وهكذا عقد القادة العزم على الصعود إليهم عند الجبل فى يوم الأربعاء، الذى يوافق ذكرى دخول السيد المسيح إلى الهيكل؛ وكان هو ذات اليوم الذى أقام فيه ماركيز بلش الاحتفال بتلك المناسبة فى أوهانيث. فى تلك الليلة، اجتمع القادة للتشاور حول النهج الذى سيسلكونه أثناء المعركة، واتفقوا على التالى: يغادر كل من السيد فرانثيسكو دى كوردوبا وخوان ثانوغيرا، برفقة الفرسان وجزء من طلائع المشاة، قبيل بزوغ الفجر؛ ثم يتبعهم السيدان غارثيًا دى بيّا رّويل وخوان بونثى دى ليون، وهم يسيرون بخطى متمهلة مع كافة جنود المؤخرة؛ لأن الفريق الأول، إبان اعتلائه للربوة، سيتعين عليه المراوغة والدوران إلى الجهة الشرقية، التى تُعَد أكثر ملائمةً للنزول من الجبل؛ وهكذا يكونون قد أقفلوا على العدو خط العودة. وذلك على النحو الذى يتيح لهم - إذا ما قسنا المسافة - أن يصلوا جميعًا فى ذات الوقت. عقب إقرار تلك الخطة، أمر القادة بتوزيع المؤن والذخيرة على الرجال، وأن يتهيؤوا لخوض المعركة.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية الإغارة على حصني جبل إينوكس، والاستيلاء عليهما

توقفت الرياح العاصفة فى تلك الليلة، وخرج رجالنا من إينوكس فى الرابعة فجراً، بعد أن تركوا بها مائة جندى مسلحين بمدفعين صغيرين، كانا قد حُملا من ألمرية ظنًا فى إمكانية الاستفادة منهما. كما بقى هناك المتاع والماشية. أما كل الرجال الآخرين: وهم ستمائة رام، ومائتى سيّاف، وأربعون فارسًا، فقد شكّلوا كتيبتين، وتوجهوا للالتفاف خلف ظهر العدو. بدأت طليعة الجيش - التى كانت تحت إمرة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا- فى الصعود عبر طريق للرعاة يتسم بالوعورة والضيق الشديد، حتى إن الرجال لم يتمكنوا من عبوره بصعوبة سوى واحداً تلو الآخر، وكان أمراً مجهداً؛ نظراً للظلام الحالك الذى عمّ الأرجاء. وكان الطريق مؤدياً إلى غويبرو Güebro، وهى إحدى بقاع ألمرية الموجودة فى الناحية الشرقية لذاك الجبل، وهى - كما ذكرنا آنفًا - تعلو الجبل الذى يتخذه الأعداء مقراً لإقامتهم. وكان أولئك قد صفّوا أطقم الحراسة التابعة لهم والدوريات على القمة العليا، بعد أن تشككوا فى وصول المسيحيين إليهم من تلك الجهة؛ فلمّا استشعروا صعود الرجال إليهم، بسبب الجلبة التى أحدثوها، شرعوا فى تحيتهم بنيران بنادقهم. بذل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا قصارى جهده لتجميع جنوده؛ ومضى بهم إلى الأمام على الرغم من الظلام السائد، مسترشداً بقادة المعسكر الذين كانوا يقودونهم؛ فتقدم لاحتلال الجبل العالى سالكًا أفضل الطرق المناسبة، حتى يتسنى له النزول عبرها ومباغتة الأعداء، وفقًا للخطة المتفق عليها.

على الرغم من سماع السيد غارثيّا دى بيّارّويل - الذى كان يقود المؤخرة - لنيران البنادق، فإن الظلام لم يمكنه من رؤية ما يفعله جنود المقدمة. فبات يسرع الخطى؛ وعندما وصل بالقرب من بعض الأحجار المرتفعة، ألفى جماعة مكونة من ثلاثين مسيحيًا يطلقون صيحات الحرب ويهجمون على بعض الرجال الأتراك المسلحين بالبنادق كانوا خلفهم. فتقدم إلى الأمام، بعد أن ظن أنهم ينتمون إلى الجنود الذين فى حوزته، وصار يحمّسهم إلى أن وصل إلى أحجار أخرى شديدة الارتفاع والوعورة، حتى إنها اضطرته إلى التخلى عن فرسه للصعود إليها. وقد عطّله ذاك الأمر لفترة طويلة، وفقًا لما أخبرن[٢٥] به لاحقًا ؛ حتى إنه عندما رجع للانضمام إلى المسيحيين الثلاثين، كانوا قد بادروا بالاشتباك مع الأتراك. ولّما كانت تلك الليلة حالكة الظلام، لم يدر هؤلاء أو أولئك عدد الرجال المواجهين لهم؛ وقد أظهر الجميع حمية جيدة، حتى انبلج ضوء الفجر. عندئذ تعرف رجالنا على بعضهم البعض، وتيقنوا من هلاكهم، بعد أن ألفوا أنفسهم قليلين للغاية فى مقابل وفرة كبيرة فى عدد الأعداء الذين يقاتلونهم، حيث تجاوزوا خمسمائة رجل ما بين أتراك ومسلمين. بينما كان غالبية مقاتلينا من رجال دين وسدنة كنيسة ألمرية الكبرى، بالإضافة إلى نواب وكتبة؛ ولم يكن بينهم أى جندى، سوى أحد الشيوخ الذى تخطى الستين عامًا، وهو من أهالى ألماثارّون Almazarrón، وكانت يداه كلتاهما مبتورتين.

قام ذلك الشيخ، صاحب الهمة والمتمرس فى استخدام الأسلحة، بوضع نفسه أمامهم جميعًا، وهو يحمل رمحًا ضخمًا فى يده؛ وبدأ يستحثهم على النحو الذى كان ليتبعه أى قائد مغوار وقوى. وقد كانت هناك حاجةً ملحةً لذلك؛ لأن الفتائل الخاصة بأسلحة معظم الرماة انطفأت، حيث لم يتم إعدادها بصورة جيدة، نظرًا للجشع الشيطانى المؤذ الذى اتسم به القائمون على تحضيرها، فلم يدعوها تنضج بالقدر

(٢٥) لاحظ تنوع المصادر عند مارمول، بين جنود وقادة، بين مسيحيين وموريسكيين (المراجع).

الكاف حتى تصير أثقل وزنًا؛ وأيضًا طمع الموردين، الذين يشترونها بثمن أرخص[٢٦]. لم يعد رجالنا يدافعون عن أنفسهم سوى بالحجارة، وقد كانوا كذلك يُقذَفون بالحجارة. بات من اللازم فرد الأذرع، ودرء الضربات عن الرؤوس؛ لأن الأحجار التى كان الأعداء يرمونها نحوهم كانت تنهمر عليهم كالثلوج. وقد أغاروا عليهم فى استبسال شديد، حتى إنهم كادوا يجهزون عليهم مرتين، لولا أن ذاد عنهم الحوارى سانتياغو[٢٧]، بعد أن أصبحوا يستغيثون باسمه المنتصر والمقدس. حينما توقف القتال، عقب طلوع ضوء النهار، لاذ الأعداء بالفرار. وقد عُرِف السبب وراء قيامهم بذلك، وهو أن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا ألحق الهزيمة بمن كان يحاربهم عند المعبر الآخر، فلجأ أولئك إلى توحيد صفوفهم مع باقى المقاتلين الموجودين عند الصخرة؛ حيث ارتأوا الدفاع عن أنفسهم فى ذاك الموضع، لكونه أشد تحصينًا.

مع تراجع المسلمين وبسط السيطرة على الجبل، واصل قادتنا ملاحقتهم وصولاً إلى الصخرة، التى ألفوا عندها مقاومة تفوق كل تصوراتهم. أصبح الأعداء يحاربون هناك كأنهم رجال عازمون على التضحية بأرواحهم فى مقابل تحرير نسائهم وأولادهم، الذين يتعرضون مثلهم لذلك الخطر المحدق، فتصدوا لزخم رجالنا فى استبسال شديد، فقتلوا بعضهم، وجرحوا ما يربو على مائتى رجل بالبنادق، والسهام، والحجارة. أُصيب حامل الراية خوان دى لاس إيراس Juan de las Eras جراء طعنة خنجر، أما السيد دييغو دى لا ثيردا Diego de la Cerda فقد تلقى ضربة حجر شديدة فى وجهه، كما مزقوا الراية إربًا بين يدى خوليان دى بيريدا، وسحقوا جسده بالحجارة. وقد بلغ

(٢٦) هذا الجانب السلبى فى المعسكر المسيحى لم يشر إليه أحد على حد علمنا (المراجع).

(٢٧) يعتقد الكاثوليك أن سانتياغو له كرامات ويستطيع نصرهم فى المعارك، وقد تأثر الموريسكيون بهم، فزعموا أن عليًا بن أبى طالب يهب لنجدة المسلمين حتى بعد مماته. انظر دراستنا "ثقافة موريسكى : قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية" ، أعمال المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية، تونس ، ٢٠٠٣ (المراجع).

ذلك الأمر قدرًا حمل الجنود - الذين نسوا أنهم هم المبادرون إلى الهجوم - إلى إدارة ظهورهم إلى الأعداء، دون احترام لقادتهم؛ فخلّفوا وراءهم الرايات، وأسلموا لواء الفرسان إلى الأعداء دون شروط. وكاد الأمر أن يفشل برمته، لولا تدخل مشيئة الرب، الذى قوّى من كانوا قادرين على التصدى للأمر على إيقاف الرجال المتقهقرين، وعلى مجابهة حنق الأعداء. وكان هؤلاء هم: السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، والسيد خوان ثانوغيرا، و السيد غارثيّا دى بيّاروّيل، والسيد خوان بونثى دى ليون، وبدرو مارتين دى ألدانا، وخوان دى بونثى Juan de Ponte - الذى كان سيّافًا استثنائيًا. حيث قاموا بقطع الطريق على جزء من الرجال، وأغاثوا الألوية فى الوقت الذى كان فيه ضرورةٌ ملحةٌ لتدخلهم.

بينما القادة منهمكون فى تجميع الجنود وحملهم على أن يعودوا إلى القتال، اقتربوا من بعض الأحجار الموجودة على يسار الجبل، حيث تراءى لهم أن هناك قلة فى الرجال عند ذاك الموضع. ولم يقدم القادة على ذلك ظنًا منهم فى إمكانية تسلق تلك الأحجار؛ لأنها كانت تبدو شديدة الوعورة، وإنما كانت محاولة ليروا إذا ما كان فى مقدورهم إلهاء الأعداء، وصرف نظرهم إلى تلك الناحية. بيد أن تلك الحادثة أضحت برمتها فى صالحهم؛ لأن المسلمين - الذين لم يستطيعوا أن يتخيلوا إمكانية تسلق أى كائن حى لتلك البقعة، نظرًا لثقتهم فى وعورة الصخور الشديدة - أغفلوا تزويد المكان بالحراسة الملائمة. حينما بدا للقواد أن الوقت قد صار مواتيًا، تسلقوا الصخور فى عجالة شديدة، فلم يمنحوا الأعداء إمكانية التصدى لهم. فبدأ اليأس ينتابهم، و بادروا بالهرب، فتمكّن رجالنا من التوغل فى حرية؛ وخلّفوا وراءهم ما يزيد على أربعمائة قتيل، دون أن تخلو صفوف المسيحيين من الخسائر: حيث قُتِل سبعة جنود، وجُرِحَ أكثر من ثلاثمائة. وقد مات قائد الأتراك - المدعو كوسالى Cosali - وهو يحارب ببسالة، وأُسِرَ فرانثيسكو لوبيث حاجب تابيرناس. كما وقع بعض المسلمين فى الأسر، فجعلهم السيد فرانثيسكو دى كوردوبا من نصيب الجنود البحريين، بالإضافة إلى ألفى وسبعمائة امرأة وطفل. كانت الثياب، والنقود، والحلى، والذهب، والفضة، واللؤلؤ،

والمؤن من ماشية ومتاع وفيرة، حتى أن قيمة الفيء قد قُدِرَت لدى الكثيرين بأكثر من خمسمائة ألف دوقية. لم يسلب من المسلمين سوى رايةً واحدةً؛ لأن القائد التركى لم يقبل إلا برفع رايته هو فقط؛ وكان قد أبقى عليها خفاقة على الدوام، فى موضع يمكّن المسيحيين من رؤيتها.

فى أعقاب ذاك الانتصار، رجع السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى إينوكس، ومنها إلى ألمرية، حيث استُقبِل فى سرور؛ واضطلع بتقسيم الغنائم على النحو المتفق عليه. وأقول إنه لم يوزّع سوى النساء والغلمان فقط، لأنه كان من المستحيل تجزئة باقى الغنيمة؛ حتى ذلك القدر سُلِبَ منه كميات وفيرة. حمل خيل دى أندرادا الجزء الخاص به وبجنوده على متن السفن، وأبحر بها لاستطلاع الساحل. بيد أن قادة القوات البرية ساد بينهم اختلافات عارمة حول تقسيم نصيبهم، وحول مقدار الخمس والمعشار، مما أسفر عن شعورهم بالسخط وعدم الرضا. وصل السيد كريستوبال دى بينابيديس - شقيق السيد غارثيّا دى بيّا روّيل - برفقة ثلاثمائة جندى من بياسة وأراضيها إلى ألمرية، للمشاركة فى تلك الحملة على نفقته الخاصة، وذلك فى الخامس من شهر فبراير. كما حضر القائد بيرناردينو دى كيسادا Bernardino de Quesada فى صحبة مائة وثلاثين جنديًا، كان بدرو أرياس دى أبلا قد بعث بهم إلى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا للغاية ذاتها. وجاء أيضًا كل من القائد أندريس بونثى، والسيد دييغو بونثى دى ليون Diego Ponce de León، والسيد فرانثيسكو دى أغوايو Francis-co de Aguayo؛ لكنهم وجدوا أن الحملة قد انتهت. فلم يشعروا بالابتهاج إلا قليلاً، على الرغم من أنهم حققوا فيما بعد الكثير من النتائج الجيدة.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول انطلاق ماركيز مونديخار من أوخيخار للتوجه صوب لاس غواخاراس، ووصفا لتلك الأراضى.

غادر جيشنا مقر إقامته فى أوخيخار وتوجه إلى كاديار، وذلك فى يوم السبت الموافق الخامس من فبراير. وقد ارتحل فى اليوم التالى إلى أورخيبا، ليعبر منها إلى لاس غواخاراس، ويصل لاحقًا إلى جبل منتميس. ولم تكن الشكوك التى راودت ماركيز مونديخار حول نشوب الثورة فى تلك الأراضى، وفى البقعة الشرقية، ومنخفض مالقة، على أيدى المسيحيين أنفسهم[٢٨]، قد أتت من فراغ؛ وهو الأمر الذى جعله لا يجرؤ على إرسال أى شخص إلى تلك الأرجاء، خوفًا من حدوث أية اضطرابات. حيث أمسى الناس يملأهم الجشع، وبات رجال الحرب حاقدين على المغانم التى ظفر بها آخرون، فصار الطمع هو آفة ذاك الزمان. وأراد أولئك إخفاء مصالحهم الخاصة خلف مشاعر الحمية لإرساء الفضيلة، وحب المسيحية[٢٩]، ونيل الشرف، لا بالسبل التى يتحقق بها للمرء الشرف الحقيقى، وإنما عن طريق أفعال تدر مالا. عندما بدا لقائدنا العام أنه معه عدد قليل من الرجال لا يخول له تنفيذ المهام التى يلزم القيام بها – لأن

(٢٨) هذا التفكير يتوافق مع منطق ماركيز مونديخار الموضوعى والمتعاطف – من ناحية أخرى – مع الموريسكيين، لكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون هذا الجانب (المراجع).

(٢٩) هذا يمثل جانبا آخر من مشكلة الموريسكيين: تذرع أعداؤهم بنصر المسيحية وارتكبوا أفعالا لا يقرها الدين المسيحى (المراجع).

جزءًا كبيرًا من الجنود كانوا قد هجروه، حاملين معهم الأمتعة التى غنموها - أو إعادة تشكيل جيشه؛ أو قطع الطريق على الشكوك التى انتابته، حول الأمور التى تدور فى غرناطة من أجل إرسال شخص لكى يضطلع بالحملة، والتعلل بانشغاله هو فى البشرات؛ بعث برسالة إلى كونت تينديًا من مقر إقامته فى أورخيبا، فأمره أن يرسل إليه ألفا وخمسمائة راجل، ومائة فارس، ممن يقطنون بالمدينة وقرى الغوطة؛ وقد تعطل يومًا فى ذاك المخيم فى انتظار قدومهم. كما أرسل فى ذات اليوم السيد ألونسو غرانادا بينيغاس إلى العاصمة، حتى يحيط جلالة الملك علمًا بالأطوار التى بلغتها شؤون الحرب، وبخضوع الثوار؛ وأن يتضرع إلى صاحب الجلالة نيابةً عنه لكى يقبلهم فى كنفه، وينظر بعين الرحمة إلى صغار المذنبين؛ من أجل أن يتمكن هو من الوفاء بالكلمة التى منحها بالفعل إلى المستسلمين؛ لأنه يرى أن ذلك هو أقصر السبل لإنهاء تلك المسألة بصورة عادلة(٣٠).

إذا تدبرنا مليًا ما قاله ماركيز مونديخار، لوجدناه أكثر الحلول مواءمةً لكى يعم السلام الشامل المملكة بأسرها؛ كما أنه يدع الباب مفتوحًا أمام إنفاذ سكين العدالة فى حناجر الأشرار، عندما يحين الوقت الذى يمكننا من القيام بذلك دون إثارة قلاقل، على الرغم من تعارض قوله مع آراء رجال بارزين آخرين، كانوا يعتقدون أن إظهار الحزم أكثر لزومًا وتأمينًا. وأمسى هؤلاء يرون أنه لن يتأتى توقيت أفضل من الوقت الحالى لقهر المتمردين؛ نظرًا لكونهم مجردين من قواهم، ووجلين، ومختلفين فى الرأى، ومعوزين إلى حد كبير فى سائر الأمور الضرورية للحياة البشرية؛ حتى أنهم صاروا يجولون بحثًا عن الفاكهة البرية الملائمة للحيوانات، وجذور الأعشاب التى يمكن تناولها؛ إلى جانب الأسى والإعياء اللذين عادةً ما يخلّفهما ضمير الآثمين. فى يوم

(٣٠) نود أن نلفت الأنظار هنا إلى أمرين: رغبة سليل عائلة مندوثا فى إيجاد حل "سياسى" للمسألة الموريسكية، والدور الذى ظل يقوم به أحفاد أبى الحسن من زوجته ثريا دفاعا عن الموريسكيين (المراجع).

الثلاثاء التالى انطلق الجيش من أورخيبا، وذهب إلى بلش بنى عبد الله Vélez de Benaudalla .وفى يوم الأربعاء اتجه إلى غواخاراس. لمّا كان الماركيز يعتقد فى وجود أعداء سوف يحاربهم خلال ذاك اليوم، فقد أمر السيّافين أن يعبروا بالجنود نهر موتريل على صهوة الخيول، لكيلا يصيبهم البلل؛ وهو ما كان سيشكّل عائقًا، نظرًا لبرودة الجو. فى أعقاب عبور النهر، سار الرجال جميعًا فى صفوف منتظمة حتى بلغوا غواخار ديل فوندون، حيث شاهدوا آثار الحريق الذى أضرمه المارقون فى الكنيسة إبان قتلهم للسيد خوان ثاباتا. وقد ألفوا المكان مهجورًا، على الرغم من كونه يحتوى على موضع حصين يمكّن القاطنين من الدفاع عن أنفسهم. من هناك توجه الجيش صوب غواخار دى الفغيت، وقد وجدها الرجال خاوية أيضًا، وقضى بها الجيش ليلته تلك.

حينما تنامى إلى علم الماركيز أن الأعداء قد مُنوا بهزيمتين: حيث غُلِب بعضهم عند غواخار العليا - التى يدعونها أيضًا غواخار ديل رى Guájar del Rey - كما هُزِم آخرون عند طريق مرتفع ثيبادا Cebada المفضى إلى البشرات، بادر بإرسال قائدين، يصحب كل منهما ثلاثمائة رام، من أجل أن يلاحقاهم ويحاولا قطع الطريق عليهم. وصل القائد لوخان إلى ممر يتعين على كل من يقصدون البشرات العبور منه، فقطع الطريق عليهم، وقتل منهم الكثير من الرجال، ثم عاد إلى المخيم دون أن تلحق به أية خسائر. تبع القائد ألبارو فلوريس من توجهوا إلى غواخار العليا، ولحق بمؤخرة جيشهم؛ إلا أن أعدادًا وفيرة من الأعداء هبت لنجدتهم، حتى إنه اضطرلإرسال جندى فى مهمة إلى الماركيز، ليطلب منه المزيد من الرجال، لأن من فى حوزته لا يكفون لتمكينه من الإغارة عليهم. أمر الماركيز بتحضير عدة مجموعات، لكن الجنود تأخروا فى الانضمام إلى الألوية، لانشغالهم بسرقة المنازل؛ فبات من اللازم الذهاب على صهوات الخيل، حتى لا تضيع تلك الفرصة. سار الماركيز إلى حيث كان ألبارو فلوريس مشتبكًا فى بعض المناوشات مع العدو، بعد أن ترك أوامر إلى إيرناندو دى أورونيا لكى يحشد صفوف المعسكر، ويخرج وراءه. تقدم الركب كل من السيد ألونسو دى

كارديناس، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا، مع حشد من الجنود كانوا قد استطاعوا تجميعه على عجالة. فاستثار أولئك الحمية فى نفوس رجالنا، ووثبوا على الأعداء، فهزموهم، وحملوهم على الفرار. كما قتلوا بعضهم، واستولوا منهم على رايتين؛ بينما التجأ الباقون إلى جبل منيع يعلو غواخار العليا بنصف فرسخ، كانوا قد أودعوا به النساء والثياب[٣١].

كان ذاك الموضع حصينًا، وكان يقع على قمة جبل مستدير، وغير متصل بأى تضاريس أخرى، وشديد الارتفاع. وكان محاطًا من جميع الاتجاهات بصخرة قائمة؛ ولا يحتوى إلا على سبيل واحد للرعاة، يتسم بالضيق والوعورة الشديدة. وهو يسير صعودًا أعلى المرتفع لمسافة تربو على ربع فرسخ، ليفضى إلى جبل صغير غير مرتفع، ليعاود منها الصعود إلى طريق وعر، حتى يصل إلى بعض الأحجار المرتفعة، التى تشكل بوعورتها مدخل سهل مستو، يتسع لأربعة آلاف رجل، وليس له طريق آخر من جهة الشرق. إلى الناحية الغربية منه توجد سلسلة جبلية، تنبع من سلسلة أخرى أكبر منها، وتكوّن طريقًا صاعدًا؛ يمكن من خلاله الصعود - بنفس القدر من الصعوبة - والتوغل إلى داخل السهل ما بين عدة صخور أخرى. بدت تلك الصخور وكأنها وُضِعَت باليد لتأمين ذاك المدخل، كما لو كانت هناك أذرع بشرية تملك من القوة ما يخول لها وضعها على ذاك النحو.

كان ماركوس الزمّار Marcos el Zamar، حاجب خَاتَار Játar وزعيم المسلمين فى تلك الناحية، قد وضع ثقته كلها فى ذلك الجبل. فأودع فيه سائر النساء، إضافةً إلى ثروات تلك الأراضى، وما يربو على ألف مقاتل، حينما شاهدوا جيشنا يتقدم للإغارة عليهم. كما كان المسلمون قد أعدوا دروعًا واقية من الحجارة، والمراتب، والبراذع، وأشياء أخرى، واعتبروها تحصينًا كافيًا للدفاع عنهم. تخلى رجالنا عن ملاحقة

(٣١) لاحظ عدد المرات التى تذكر فيها الثياب؛ وذلك لأهميتها. (المراجع).

الأعداء، ورجعوا إلى غواخار العليا، فألفوا بها ماركيز مونديخار وجانبًا من سلاح الفرسان. فما كان من ذاك الأخير، نظرًا لتأخر الوقت، وفرط وعورة الطريق، والصعوبة الشديدة لاجتيازه أثناء الليل، إلا أن أرسل إلى إيرناندو دى أورونيا يأمره بعدم التحرك حتى يطلع الصباح؛ وبات ليلته تلك فى ذاك الموضع مع من فى حوزته من الرجال. إبان وجود معسكرنا فى غواخار دى الفغيت، وصل إلى غرناطة كونت سانتيستيبان el conde de Santisteban، يرافقه الكثير من الفرسان من أقربائه وأصدقائه، ممن قدموا للمشاركة فى تلك الحملة؛ كما حضر ألونسو بورتوكارّيرو - الذى كان قد شُفِى من الإصابة التى تعرض لها فى بوكيّرة - فى صحبة المشاة والفرسان الذين كان ماركيز مونديخار قد أرسل فى طلبهم من كونت تينديّا.

الفصل الثلاثون

كيف أراد بعض الفرسان من جيشنا احتلال جبل غواخاراس، متعللين بالذهاب لاستطلاعه، والهزيمة التى منوا بها على أيدى المسلمين، وقتل عدد منهم.

فى تلك الليلة طلب السيد خوان دى بيّارّويل من ماركيز مونديخار أن يمنحه الإذن لكى يتوجه فى اليوم التالى، مع نفر من الرجال البواسل، لاستكشاف الجبل؛ فسمح له بذلك بعد أن بالغ فى الإلحاح عليه. وقد أمره الماركيز أن يصطحب معه خمسين من الرماة، وأن يستطلع المكان على نحو لا يتسبب فى إثارة اضطرابات. كان السيد خوان دى بيّا رّويل يطمح لتحقيق الشهرة. وبات يعتقد أن المسلمين لن يجرؤوا على الانتظار فى معقلهم؛ أو أنهم لمّا يشهدون مقدمه، سيظنون أن الجيش بأكمله سيغير عليهم، ويلوذون بالفرار؛ أو أنهم سيستسلمون له قبيل وصول الجيش. فأبلغ مسعاه وشكوكه إلى نفر من الفرسان والجنود غير النظاميين، الذين يتفقون معه فى تلك الرغبة. فغادر المعسكر مع خمسين جنديًا كان لزامًا عليه اصطحابهم. لكن فيما بعد تبعه رجال آخرون كثيرون، خرج بعضهم بداعى الجشع، بينما ودّ البعض الآخر إظهار الشجاعة، حيث اعتقدوا أنه سيتحقق له ما أراد.

كان الرجال قد ابتعدوا بالكاد عن المخيم حينما اشتبكت الطليعة فى بعض المناوشات مع عدد من المسلمين، الذين كانوا موجودين عند بعض الروابى على الجبل. فنودى فى الجنود لحمل السلاح، وذاع الخبر فى المكان، للمطالبة بقوات إغاثة من الفرسان. عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار أنباء تلك الفوضى استشاط غضبًا،

حتى إنه أرسل إلى القائد من يخبره أن نجدة مثيرى الشغب ليست بالأمر الجيد، وأن عليه أن يعود أدراجه. فلمّا أدرك الماركيز أنه لن يتمكن من إثناء السيد خوان عن عزمه، وأنه ماض قدمًا فى مسيرته، خرج هو بشخصه على عجل برفقة من تسنى له تجميعهم من الفرسان؛ كما لو كان قد تكهن بما سيجرى. تقهقر المسلمون الذين يجولون خارج الجبل، إلى جانب من بادروا بالاشتباك فى تلك المناوشات إلى معقلهم. عندما وصل ماركيز مونديخار إلى الربوة الكائنة أمام الجبل، كان الجنود قد شرعوا بالفعل فى تسلق سفح الجبل، لاحتلال الهضبة التى كنا قد أشرنا إلى وجودها؛ وكان المسلمون قد أودعوا بها رجالاً آخرين للذود عنها. رافق السيد خوان دى بيّا رّويل كل من: القائد الإشبيلى السيد لويس بونثى دى ليون، والسيد خيرونيمو دى باديًا Jerónimo de Padilla، وأغوستين بينيغاس Agustín Venegas، وغونثالو دى أوورونيا ابن إيرناندو دى أوورونيا Gonzalo de Oruña- – وسيادة المفتش خوان بيلاثكيث رونكيّو Juan Velázquez Ronquillo، ورجال آخرون من ذوى النفوذ، وما يفوق أربعمائة جندى.

أما الرجال الذين اصطحبوا خيولهم، فقد تخلوا عنها لعدم استطاعتهم الإفادة منها، وصعد الجميع إلى أعلى المرتفع على الأقدام. وقد أمعنوا فى التقدم، حتى أن بعض الجنود المتحمسين الذين نالوا من الأعداء برماحهم عند الصخرة، استطاعوا الدنو من الدروع ذاتها التى تقى المعقل. ولو أن الجميع قد تقدموا إلى ذاك الحد، لربما تمكنوا من فتح ذاك المعقل؛ بيد أن أحدًا لم يتبع خطاهم، وكانت الأمور تستدعى من أصدقائهم القيام بذلك. لكن الكثير منهم ظلوا فى منتصف المرتفع، بينما مكث آخرون بالأسفل على مقربة من الجدول؛ وباتوا يتدافعون ويسعون لدرء الضربات أينما وجدوا صخورًا أو شيئا يتيح لهم الاختباء من الأحجار التى يقذفها عليهم الأعداء من عل. دام ذاك الهجوم المتهور ما يربو على الساعة، واستنفد خلاله رماتنا الذخائر دون تحقيق مبتغاهم؛ لأن الأعداء كانوا مختبئين خلف دروعهم. وقد شرع أحد الجنود –الذى غلبته الحماسة أكثر من الحس العملى – فى المطالبة بتسليم الذخيرة من يد إلى

يد، وهو أمـــر بالـغ الخـطورة فـى الظروف المـاثلة لما يمرون به، حــيث لا ينجم عنه سوى تحذير العدو، وإفهام الصديق أن قائل تلك العبارة على وشك أن يلوذ بالفرار. وهو ما حدث فى ذاك اليـوم، لأن الجنود الذين كـانوا بالأسـفل بالقرب من الجـدول، إزاء استشـعارهم لتلك الزلة، كانوا أول من بادروا بالهرب. ثم تبعهم الأخرون الذين كانوا إلى الأعلى منهم بعض الشىء. وفى النهـاية فـر من كـانوا فى المقدمـة، بعد أن أذهلهم رؤية ذاك الخطب؛ فظـنوا أن ذلك الأمـر مـرده شن الأعـداء لغارة كبـرى من ناحيـة أخـرى؛ لأنهم كـانوا يدركـون جـيـداً أنه مـا من داع للفـرار من مـواجـهـة أولئك الموجودين أمامهم.

على الرغم من كل تلك الفوضى، مـا كـان القابعون بداخل المعقل ليجسروا على الخروج، لولا إقدام ماركوس الزمّار – الذى قتل رجلين مسلمين كانا يبادران بالهرب فى ذاك اليوم – على الإطلال على الخارج؛ وتحفيزه الرجال على الخروج للقتال، لدى مشـاهدته لما يدور. قـفز إلى خارج الدروع أربعون غلامًا من أكثرهـم شـجاعةً، وقد تسلّحوا بالحجارة والرماح الصـغيرة، وتسببوا فى مشـهدٍ بائسٍ يغص بالقتلى. أجهز المسلمون فـى ذاك اليـوم على كل من: السـيد لويس بونثى ، وأغـوسـتين بينيـغـاس، وغـونثـالو دى أورونيـا، و سيـادة المفـتش رونكيّـو، والسـيد خـوان دى بيّا روّيل؛ كمـا جرحوا السيد خيرونيمو دى باديًا، وكان أحد المسلمين يلاحقه، وكاد يرديه قتيلاً، لو لم يهب لنجدته أحد العبيد المسيحيين. حيث قام الرجل بضمه بشدةٍ بين ذراعيه، وأخذ يتـدحـرج وإياه نزولاً من أعلى الجـبل، ولم يتـوقف حـتى هبطا إلى الجـدول، حـيث تم إنقاذه. حينما شـهد ماركيز مونديخار الهزيمة التى منى بها أولئك الأناس التافهون، وكيفية لجوء المسلمين إلى إعمال الخناجر فى كل من تطاله أيديهم، وإن سلاح الفرسان لن يتسنى له ترجيح كفته – لأنه ليس هناك طريق يعبر من خلاله الهاوية التى يقع بها الجدول، كما أن الأرض لا يمكن أن تطأها الخيول – ترجل عن جـواده، حـاملاً ترسًا دائريًا وشـاهـراً سيـفـه فى يده. وقد حـذا حـذوه الفرسـان والسيّـافـون الذين كـانوا يرافقونه، فنزل الجميع عن صـهوات الجياد. ثم توجه الجمع، بالإضافة إلى أفراد طاقم

حماية الماركيز المسلحين بالرماح ذات الرأس الذى يشبه البلطة، وفرقة من أربعين جندياً من الرماة، لاحتلال موقع حصين يتيح لهم التقاط الجنود الفارين، لكى لا يقضى عليهم المسلمون، الذين خرجوا من معقلهم على وجه السرعة، وباتوا يلاحقونهم فى شتى الأرجاء. ولم يكن سينجو سوى عدد قليل من المسيحيين، نظراً لانتشار المسلمين ومعرفتهم الوثيقة بتلك الأراضى.

واصل الهمجيون تقدمهم حتى وصلوا إلى مدى بعيد فى ذاك اليوم، حيث أصابوا جنديين مسلحين بالرماح ذات رأس البلطة، كانا على مقربة من الماركيز، بعيارين ناريين من بنادقهم. وكانوا سيلحقون بنا أذى بالغًا لولا خشيتهم من سلاح الفرسان. فى النهاية تراجع المسلمون سالمين غانمين، ورجع الماركيز إلى موضعه، مخلّفًا وراءه السهل والهوة وقد تناثرت فى سائر أنحائهما جثث القتلى. فى تلك الآونة حضر إيرناند دى أورونيا مع القوات بأسرها. لكنه لم يأت فى الوقت الذى يتيح له الإغارة على المعقل فى ذاك اليوم؛ لأنه من فرط وعورة وضيق الطريق، أمسى من الضرورى أن يسير الرجال والمتاع فى صف، واحداً تلو الآخر. حينما وصلوا كان الوقت قد صار متأخراً للغاية، فكان ذلك هو العلة وراء الاتفاق على الانتظار إلى اليوم التالى، الذى كان يوافق يوم جمعة.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول كيفية الهجوم على حصن لاس غواخاراس، والظفر به.

عندما اجتمع الجيش عقب اكتمال صفوفه، أمر ماركيز مونديخار بتسليم كافة القادة أوامر النظام الذى يتعين اتباعه أثناء المعركة مكتوبةً. كانت الخطة تسير على النحو التالي: يخرج كل من ألبارو فلوريس وغاسبار مالدونادو، على رأس ستمائة جندى، لسلك الطريق المفضى إلى البحر، على أن يصعدا فيه حتى يبسطا سيطرتهما على أعلى الجبل ما بين الجنوب والغرب. وأن يسلك كل من بيرنابى بيثانيو Bernabé Pizaño وخوان دى لوخان، يرافقهما أربعمائة من الرماة، سفح الجبل حتى يصلا لاحتلال الربوة الكائنة أسفل الحصن. كما يتمركز فى البقعة الشمالية كل من أندريس بونثى دى ليون، والسيد بدرو رويث دى أغوايو، مع مائة وعشرين رماح القادمين من مدينة قرطبة؛ بالإضافة إلى ميغيل خيرونيمو دى مندوثا Miguel Jerónimo de Mendoza، والسيد دييغو دى ناربائث Diego de Narváez، وتصحبهما فرقتا المشاة اللتان يترأسهما ذاك الأخير، إلى جانب القائد ألونسو دى روبلس Alonso de Robles. فيحاولون تسلق الجبل، وبلوغ أقصى ارتفاع يمكنهم الوصول إليه، إلى أن يتخذوا موضعًا يشرفون فيه على العدو من عل. على أن يتركوا الفرسان فى الأسفل، ويودعونهم فى محل يتيح لهم مباغتة الأعداء إذا ما رغبوا فى أن يعودوا أدراجهم خلسةً إلى البشرات. أما الماركيز، فسوف يسير فى الطريق المستقيم برفقة كل من يتبقى من الجيش.

لكى لا يتم اكتشاف المواضع التى سيتمركز فيها أولئك الرجال من البقعة التى يعسكر بها الأعداء، وحتى يتزامن بدء الهجوم مع الوقت التى تتم فيه محاصرة المرتفع، أمر الماركيز أن يتم إصدار إشارة التحذير عن طريق ضرب طلقة واحدة من مدفعية الميدان. كان لزامًا على ألبارو فلوريس الدوران لمسافة فرسخين كاملين من أجل الذهاب لاتخاد موقعه، فلم يستطع الوصول إلى هناك إلا عقب انتصاف النهار، وذلك من فرط وعورة التضاريس. حينئذ اكتشف المسلمون الرجال الذين يتسلقون الجبل لاحتلال قمته، فبادروا بالخروج على عجل للدفاع عن الممر الذى يفضى إلى الموضع الذى كان سيتمركز به القائدان بيثانيو ولوخان. بيد أنهم لم يقدروا على إعاقتهما عن بلوغه، بل اضطروا إلى التراجع بعد أن منيوا بخسائر. حينما بدا كأن الجبل أضحى محاطًا من كل الجهات بصورة جيدة للغاية، أمر الماركيز بإطلاق إشارة الهجوم. صعدت كتائب المشاة إلى أعلى الهضبة، حيث كان لا يزال بالإمكان رؤية خيوط الدماء المسيحية، التى تقطر على أثر الجروح الموجودة بالأجساد العارية. فألفوا المنطقة الأولى مهجورة؛ لأن المسلمين الذين كانوا بها قد غادروها، وأخذوا يتراجعون القهقهرى نحو الحصن، بعد أن رأوا ألبارو فلوريس وقد اعتلى قمة الجبل من فوقهم؛ حيث ألحق بهم خسائر عديدة بنيران البنادق.

بدأ كلا الفريقين فى تبادل التراشق بالأعيرة النارية عن بعد، فنجحت صعوبة التضاريس ووعورتها فى التغلب على الحماسة التى كان يشعر بها جنودنا. دام القتال حتى غروب الشمس، حيث دافع المسلمون من خلف دروعهم، وتمرست أذرع الرجال والنساء على قذف الصخور الضخمة والأحجار على من يتسلقون الجبل. فتمكنوا بذلك من التصدى لثلاث هجمات، بعد أن ألحقوا بنا خسائر ليست بالضئيلة؛ حتى أمر ماركيز مونديخار بتراجع الرجال، وإرجاء القتال إلى اليوم التالى، بعد أن تراءى له أن الوقت قد أمسى متأخرًا. ظل الهمجيون على زهوهم، لإدراكهم أن الليل الوشيك سوف يطيل من أعمارهم، وإن كان الخوف قد دب فى صدورهم. حينما فطنوا إلى أن ما حدث يشير إلى احتمال وجود زلل بين رجالنا، أو كون الجنود يستريحون من المجهود

الذى بذلوه، قام الزمّار باستدعاء الخيرونثيّو وغيره من المسلمين البارزين الموجودين فى ذاك الموضع، وخاطبهم على النحو التالى: " قام أسلافنا الذين فتحوا هذه الأراضى - التى تضيع من بين أيدينا الآن- بالتوغل ما بين هذه الجبال، والاحتماء بتلك الصخرة وذاك الموضع الذى مثّل بالنسبة إليهم نوعًا من الحماية ضد أى هجوم من قبل المسيحيين؛ وكذلك فقد كان ساحل البحر تحت تصرفهم، حينما كانت هذه المنطقة مأهولة بالمسلمين. لكنى لا أدرى إذا ما كان الساحل لا يزال متاحًا بالنسبة إليهم، حيث إنهم فقدوا الثقة فى قدوم من يغيثهم، كما هو الحال بالنسبة إلينا. فنحن الآن مجبرون على الهلاك من جراء العطش والجوع والجراح التى يصيبنا بها هؤلاء الأعداء، الذين طردناهم أربع مرات من أمام دروعنا. إن ما نعده نصرًا هو الخزى بعينه؛ لأنهم سيعمدون إلى إغماد سيوفهم فى حناجرنا بمزيد من الوحشية، مع مثابرتهم على شن الهجمات، وهو ما سيقومون به بكل تأكيد. وأشد ما يؤسفنى هو تعرض هؤلاء النسوة وهذه الكائنات البريئة لنفس المصير القاسى. فإذا ما حاولنا تسليم أنفسنا فى هذه الظروف، سيكون ذلك أيضًا بمثابة الفصل الأخير فى حياتنا؛ فمن منا يراوده الشك فى أن الماركيز الحانق سيرغب فى التضحية بنا جميعًا، انتقامًا لموت قواده؟ من أجل ذلك يا إخوتى يتعين علينا الحفاظ على أنفسنا لتحقيق مساع أخرى. حينما يرخى علينا الليل سدوله، ويغفل عنا المسيحيون ظنًّا منهم أنهم قد أوقعونا فى شباكهم، علينا استغلال طرق الرعاة الخفية التى لنا دراية بها، لنقود عائلاتنا للرجوع إلى شعاب الجبل".

أقر الجميع ذلك الرأى، وكان قائدهم هو أول من وافق عليه. فخرجوا وهم يتحرون الصمت قدر المستطاع، حاملين خلفهم اعدادًا غفيرة من النساء اللواتى كن يمتلكن الهمة لاتباعهم. فهبطوا عبر وهاد وعرة حتى إنها كانت لتبدو للماعز طرقًا صعبة؛ وذهبوا فى اتجاه لاس ألبونيويلاس، دون أن تشعر بهم الدوريات التابعة لمعسكرنا التى كانت تجوب الجبل. وقد تبقى فى المعقل الشيوخ، وجانب كبير من النساء اللواتى كن يأملن فى إنقاذ حياتهن، عن طريق وضع أنفسهن تحت رحمة

المنتصر. قبيل بزوغ ضوء النهار، قال من بالداخل لكاهن مسيحي كان أسيراً لديهم يُدعى إسكالونا Escalona، أن ينادى على المسيحيين ويخبرهم كيف أن المحاربين قد رحلوا جميعًا، وإن من مكثوا فى المكان يريدون من يُسبِغ عليهم رحمته. فأطل الرجل من فوق أحد الدروع، وصاح بالمسيحيين فى صوت عال أن يصعدوا إلى الأعلى؛ لأنه لم يعد هناك من يدافع عن الحصن. على الرغم من أن الدوريات قد سمعته، وقامت بتنبيه الماركيز إلى الأمر، فإنه لم يوافق على صعود أحد إلى أن ظهر ضوء الصباح. حينئذ أمر كلاً من القائدين: السيد دييغو دى أرغوتى Diego de Argote، وكوسمى دى أرمِنتا أن يصطحبا الرماة الأربعمائة القادمين من قرطبة، ويتوجها ليريا إذا كان ما يقوله ذاك الرجل صحيحًا. حينما وجداه كذلك احتلا الحصن، وأحاطا الماركيز علمًا بما جرى. فى ذاك اليوم، طعن الفرسان بالرماح عدداً من المسلمين والمسلمات الذين كانوا يلوذون بالفرار. أما الزمّار، الذى كان يقطع تلك الجبال حاملاً على كتفيه ابنةً له تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، فقد توقف بسبب الإرهاق ووضع نفسه تحت إمرة بعض الجنود الذين ألقوا القبض عليه. وقد فرض عليه كونت تينديًا عقابًا رادعًا لاحقًا فى غرناطة.

كان غضب ماركيز مونديخار عارمًا، فلم تأخذه الرحمة بأى عمر أو جنس، وأمر بنحر كافة الرجال والنساء الذين وجدوا داخل الحصن. حيث جعل أفراد طاقم حراسته المسلحين بالرماح ذات رأس البلطة يجهزون عليهم فى وجوده، فلم تكن تضرعات الفرسان والقادة، أو الدموع الشفيقة التى ذرفنها من تطالبن بالإبقاء على حياتهن البائسة، بكافية لتهدئة حفيظته. وقد أمر لاحقًا بتسوية الحصن بالأرض، ووزع الغنيمة على الجنود. كان ذلك هو الداعى وراء مكوثه فى موضعه حتى يوم الإثنين الموافق الرابع عشر من شهر فبراير؛ بالإضافة إلى اضطلاعه بإرسال دورية إلى موتريل لمرافقة المرضى والجرحى، وكانت أعدادهم كبيرة. فبعث كونت سانتيستيبان مع المعسكر إلى بلش بنى عبد الله للانتظار حتى يوافيهم هناك، بينما توجه هو فى صحبة

الفرسان لزيارة معاقل كل من المنكب، وموتريل، وشلوبانية، ثم عاد أدراجه ليلتقى الكونت، ليرجع الجميع إلى أورخيبا، من أجل مواصلة إخضاع باقى قرى البشرات. سادت أجواء من السرور فى غرناطة ابتهاجاً بفتح ذاك الحصن، لكنها كانت مشوبة بالحزن على من ماتوا من المسيحيين. وكان هذا هو الحال فى أجزاء أخرى عديدة من المملكة.

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول كيفية الإعلان عن اتخاذ أسرى تلك الحرب عبيدًا، مع شيء من الرأفة

كانت هناك شكوك منذ بداية الحرب حول مصير الثوار الذين تم أسرهم فى غضونها، من الرجال والنساء والأطفال، وإذا ما كانوا سيصيرون عبيداً. فى تلك الآونة لم يكن المجلس قد حزم أمره فى هذا الصدد بعد، حيث كانت هناك آراء المحامين وعلماء اللاهوت الذين يرون أنه لا ينبغى القيام بذلك؛ لأنه على الرغم من أن القانون العام يسمح باتخاذ أسرى الحرب من الأعداء عبيداً، فإن الأمور لا يمكن فهمها على ذاك النحو بالنسبة للمسيحيين. ولمّا كان الموريسكيون مسيحيين، أو أنهم -كما كانوا آنذاك- يحملون تلك التسمية، فإنه ليس من الانصاف أن يؤخذوا فى الأسر. كان جلالة الملك قد علّق إصدار قراره، وأمر المجلس الملكى أن يشير عليه بما يتراءى له فى ذاك الصدد. كما كتب إلى رئيس محكمة غرناطة الملكية ومستشاريها الحقوقيين، من أجل أن يبحثوا الأمر فى اجتماعاتهم - وهى عبارة عن جلسة عامة، تنعقد فى العادة يومين من كل أسبوع - ويرسلوا برأيهم إلى صاحب الجلالة. فى أعقاب تداول ذلك الأمر الذى ينطوى على قدر كبير من الأهمية، خلص أعضاء المحكمة إلى أنه من الممكن ومن الضرورى أن يصيروا عبيداً، وذلك طبقًا لمجمع أساقفة مدينة طليطلة، الذى اتخذ ذلك القرار فى حق اليهود الثوار الذين كانوا موجودين فى عصر آخر؛ إلى جانب أن الموريسكيين مجّدوا اسم محمد، وأفصحوا عن كونهم مسلمين.

أقر ذاك الرأى عدد من علماء اللاهوت، وأمر جلالة الملك بتنفيذه. على أن يطبّقه مجمع الأساقفة على الموريسكيين، بنفس الطريقة التى اتبعوها مع اليهود، مع تعديل

رحيم؛ أراد إضافته انطلاقًا من كونه أميرًا مراعيًا للحقوق وعادلاً، وهو: "الذكور الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، والإناث اللاتي لم يبلغن أحد عشر عامًا، لا يمكن أن يضحوا عبيداً؛ بل يوضعون تحت الوصاية المؤقتة، لكي تتم تربيتهم وتعليمهم في شؤون العقيدة". صدر قرار في هذا الصدد على هيئة مرسوم، وقد تمت إذاعته وتوزيعه في سائر أرجاء المملكة. وإلى يومنا هذا يراعى تطبيق ذلك المرسوم مع من طالبوا من قبل ومن يطالبون بتحقيق العدل؛ لأن تلك المسألة شهدت منذ بدايتها فوضى عارمة، حيث تم تشريد الأطفال الأبرياء وبيعهم كالعبيد.

كان هناك أيضًا شك آخر حول وجوب إعادة الممتلكات، التي كان الثوار قد سلبوها من المسيحيين؛ لأن المالكين، حينما تعرفوا على حليهم الخاصة في حوزة الجنود الذين غنموها أثناء الحرب، لجؤوا إلى العدالة من أجل المطالبة بها؛ وأمسى هناك عديد من الدعاوى والخلافات في ذاك الصدد. وقد قررت المحكمة ذاتها أنه لا ينبغي رد الأمتعة لأنها مكاسب حرب؛ ولأن ماركيز مونديخار، رغبةً منه في تحميس الجنود الذين لا يتقاضون راتبًا، إبان دخوله مع جيشه إلى البشرات، كان قد أمر بإصدار مرسوم -أثناء مروره بجسر أورخيبا - أعلن فيه أن تلك الحرب ضد أعداء للدين ومتمردين على حكم جلالة الملك، وأننا سنقمعهم بالحديد والنار.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول الاستمرار فى إخضاع أراضى البشرات، والاعتراضات التى ظهرت ضد تلك المسألة.

إزاء عودة جيشنا إلى أورخيبا بادر مسلمو البشرات - الذين أعيتهم الفاقة الشديدة والنكبات - إلى الأخذ بالنصح الذى أُسدِى لهم؛ لأن الحرب التى شُنَّت ضدهم خلال فصل الشتاء القارس، وطردهم من قراهم، لم يدع لهم ملجًا آخر سوى الجبال. كما أنهم باتوا يهلكون من جراء الجوع والبرد، أثناء ترحالهم محملين بالنساء والأطفال، وصاروا يشاهدون خطر الموت والوقوع فى الأسر ماثلاً أمام أعينهم. فبدأوا يحضرون للاستسلام، ووضع أنفسهم تحت رحمة جلالة الملك دون قيد أو شرط، ليفعل بهم وبممتلكاتهم ما يتفضل به؛ كما حدث من قبل مع حجّاب خوبيليس، وأوخيخار، وأندرش، والبلدان الأخرى التى أسلفنا ذكرها. وقد وعدهم ماركيز موندیخار أن يتشفع لهم عند جلالة الملك لكى يصفح عنهم. فكانوا كلما جاءوه يستقبلهم تحت الكنف والأمن الملكيين، ويمنحهم صكوك تأمين منه لكى لا يتعرض لهم رجال الحرب بسوء. كما أمرهم أن يحضروا إلى المعسكر الأسلحة والرايات الموجودة بالقرب من البلدة، بينما عيّن كنائس خاصة وبعض الأشخاص لجمع ما كان بعيداً منها.

فى أعقاب ذلك بدأ المسلمون يفدون من كل صوب وحدب. على الرغم من أن الأسلحة التى جلبوها معهم كانت فى حالة سيئة للغاية، مما جعلنا ندرك أنها ليست ذاتها التى تُستَخدَم للقتال، حيث سلّموا أقواساً فولاذية، وبنادق، وحراباً، وسيوفًا، كلها صدئة ومهشمة؛ كما أحضروا كميات كبيرة من مقاليع الحلفاء. حينما كانوا

يُسألون عن أماكن الأسلحة الجيدة، كانوا يجيبون بأن الثوار الجبليين والجنود الذين لم يريدوا الاستسلام قد حملوها معهم. أخيرًا بدأت تظهر على الأشقياء بعض أمارات السكينة، والموافقة، لا على المراسيم فحسب، بل على كل ضريبة تُفرَض على ضياعهم. خلال فترة وجيزة جدًا كانت سائر بقاع البشرات قد توافدت على أورخيبا، ممثلةً فى الحجّاب، أو نواب مجالس البلدية، أو نواب المحاكم؛ وذلك بعد أن أقنعهم وأغراهم للقيام بذلك الموريسكيين اللذين أتينا على ذكرهما سلفًا، وكانا يدعيان: ميغيل بن ثابا – وهو أحد أهالى بالور – وأندريس الوزير – وهو من مواطنى أوخيخار. بعد أن قام هذان الرجلان بكل ما فى وسعهما فى ذاك الصدد، طلبا من ماركيز مونديخار فى إلحاح شديد أن يودعهما داخل المملكة مع زوجيهما وأبنائهما؛ لأنهما كانا يدركان بوضوح أنهما إذا ما ظلا فى البشرات، فإنهما هالكان لا محالة. كان الماركيز يرغب بشدة فى القيام بذاك المعروف من أجلهما، بيد أنه لم يجسر على إرسالهما فى ظل الأجواء المشحونة التى كانت تسود غرناطة، لأنه كان يخشى أن يعتقلهما قضاة، ويأمروا بقتلهما. وقد توفى كلاهما فى البشرات فى نهاية الأمر، حيث قُتِلَ ميغيل بن ثابا على يد بعض الجنود الذين ذهبوا إليه لتولى حراسته، بينما مات أندريس الوزير – الذى كان طاعنًا فى السن – من جراء المرض.

بعث ماركيز مونديخار بالكاهن القانونى توريّخوس من أورخيبا، فى صحبة ثلاثمائة جندى، لإقناع قرى جبل فيلابرِيس بالاستسلام. فقام ذاك الأخير بإخضاعها جميعًا، بالإضافة إلى طاعات أخرى عديدة مما حولها؛ ثم جمع الأسلحة والرايات التى سلموها إليه، وأرسلها إلى المعسكر، دون أن يلقى من يقاومه فى الطريق. وكذلك فقد استسلم الكثير من القرى على يد كل من القائدين: خيرونيمو دى تابيا Jerónimo de Tapia، وأندريس كاماتشو Andrés de Camacho. بيد أن هذين القائدين تسببا فى إحداث فوضى عارمة، حيث استلبا الغلمان والمتاع من المستسلمين. وقام بالأمر ذاته الكثير من فرق الجنود العصاة، التى خرجت تجوب الأراضى – دون إذن– من المعاقل الساحلية، ومن معسكر ماركيز بلش، ومن أورخيبا، ومن بقاع

أخرى. من أجل تفادى تلك الأضرار، قامت بعض المجالس بمطالبة ماركيز مونديخار بإرسال بعض الجنود للمكوث معهم، والدفاع عنهم؛ على أن يُقدِّموا لهم الطعام، ويدفعوا لهم عملتين كراتب يومى. بالإضافة إلى ذلك، فقد بعث ماركيز مونديخار بالقائد ألبارو فلوريس وكتيبته ليجوب الأراضى بصورة دورية، لتنحية الرجال الذين مارسوا العصيان وأشاعوا الاضطرابات. وهكذا أضحت البشرات تغص بالناس، حتى أن عشرة أو اثنى عشر جنديًا أخذوا يذهبون من عدة مواضع إلى مواضع أخرى دون أن يجدوا فيها من يضايقهم، ولم يكن عدد الرجال الذين رفضوا العودة إلى منازلهم يتجاوز الخمسمائة.

أمر ماركيز مونديخار فى تلك الآونة بإبلاغ الموريسكيين الحائزين إماءً من خوبيليس أن عليهم اقتيادهن لاحقًا إلى أورخيبا؛ وقد قام ميغيل دى إبريّرا بانتزاع أربعمائة منهن من قبضة أزواجهن، وآبائهن، وإخوانهن، لتسليمهن إلى الماركيز. إزاء ضغط وكلاء الماركيز عليه من أجل تسليمهن جميعًا -فى الوقت الذى ارتأى فيه القائد استحالة قيامه بذلك، نظرًا لوفاة بعضهن، ووقوع البعض الأخر فى الأسر من جديد، على يد الجنود العصاة الذين يجوبون الأرجاء دون التقيد بأى نظام؛ ورغبةً منه فى درء غضب الماركيز عليه- سعى لمصالحته عن طريق الاستعاضة عنهن بضم كل إماء طاعة فيريّرة. كان من الممكن أن يتحقق له ما أراد، لو أنه اتفق مع الأهالى على ثمن معقول. حيث عرض المسلم[٣٢] عشرين دوقية للرأس الواحدة، بينما لم يقبل حائزو الإماء بأقل من ستين دوقية للأمة الواحدة. فى النهاية اضطر السيد ميغيل إلى إحضار من تمكن من جمعهن، وبيعت الكثيرات منهن بالمزاد العلنى لصالح جلالة الملك فى غرناطة، بينما ماتت أخريات فى الأسر.

---

(٣٢) أى ميغيل دى إبريّرا. (المراجع).

كانت كل تلك الأمور حجة على رغبة أولئك الأشقياء فى العيش فى سلام وطمأنينة. كان ذلك فحوى رسالة ماركيز مونديخار التى كتبها إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه الملكى، حيث اعتبر أن الأمر قد بات منتهيًا. بيد أنه كان هناك العديد من الأشخاص ذوى المكانة يخالفونه الرأى؛ فقد تراءى لهم أن ذلك السلام لا يمكنه الاستمرار، وقالوا إن أولئك الأشرار كثيرو العدد، وإذا ما أتتهم النجدة من بلاد المغرب فإنهم سيعودون إلى إثارة الآخرين، فحينما يدرك الموريسكيون – بوصفهم أناسًا حذقون ارتكبوا آثامًا عديدة – أنه سيُنظَر إليهم بعين الرحمة، سينظرون هكذا إلى طبيعة القائد العام، وعندما يشهدون توقف اللجوء إلى السلاح لقمعهم، ستزداد جرأتهم على اقتراف خطايا أخرى أكبر من سابقتها. كما أنه بلغ إلى علمهم خبر مؤكد، مفاده أن ابن أمية كان قد أرسل أحد أشقائه برسائل إلى حاكم الجزائر أولوج على Aluch Alí، يطلب منه أن ينجده ويمده بسفن ورجال وأسلحة وذخائر؛ وهو يهب نفسه كواحد من رعايا الباب العالى. فى حال عدم تحقق ذاك الأمر، وفى أعقاب خضوع الثوار، لابد من إقحام العدالة كوسيلة لمعاقبة الرؤوس المدبرة لتلك الثورة، كما يقتضى الانصاف. نظرًا لكونهم كثيرين ولديهم العديد من علاقات المصاهرة فى كافة الأرجاء، فإنه لا محيص من نشوب اضطرابات جديدة فى المنطقة. أما إذا منحوا عفوًا عامًا، فإنه لن يمسى أمرًا يتناسب وسمعة ملك ومملكة ذات نفوذ واسع كقشتالة، ترك من أقدموا على ارتكاب كل تلك الجرائم فى حق الذات الإلهية والبشرية دون عقاب رادع.

كانت تتم مناقشة تلك الأمور فى غرناطة، وفى العاصمة، وفى سائر أنحاء المملكة. الكل يتذمر من ماركيز مونديخار بوصفه راعى ذاك السلام، قائلين إنه يفعل ذلك لتحقيق منفعته الخاصة؛ لأنه إذا ما أُخلِيَت الأرض من سكانها الموريسكيين، فسيفقد الماركيز جزءًا كبيرًا من ممتلكاته فى تلك المملكة، والمكاسب التى تُدِرّها عليه الخدمات التى يقدمها له الموريسكيون، وكانت مكاسب طائلة. أما أشد من ساهم ذاك السلام، فقد كانوا من عانوا الكثير من المعاملات الوحشية على يد الثوار، بالإضافة إلى آخرين كانوا يحلمون بتحصيل قدر كبير من فىء تلك الحرب؛ فالجشع لا يهمه إلا تحقيق الربح.

الفصل الرابع والثلاثون

يتناول إبلاغ ماركيز مونديخار عن المكان الذى لجأ إليه ابن أمية والصغير، وإرساله من يتولى اعتقالهما خلسة.

كان هذا ما آل إليه حال الثوار حينما قام ميغيل بن ثابا - حاجب بالور - وآخرون من أقربائه، وكانوا أعداءً لابن أمية، ويتحسسون أخباره من أجل القضاء عليه أوإلقاء القبض عليه، بتنبيه ماركيز مونديخار إلى الكيفية التى يجوب بها ابن أمية والصغير جبال بيرتشوليس. وإنهما يختبئان نهاراً فى الكهوف، ويلتجؤون ليلاً إلى قرى بالور وميثينا دى بومبارون. وأنهما اعتادا فى الغالب الاجتماع فى دار دييغو لوبيث بن عبو فى ميثينا، لامتلاك ذاك الأخير صك أمان يؤمنه على حياته. فما كان من الماركيز - الذى يرغب فى وضع يديه عليهما، حفاظاً على السلام الذى تم ارسائه فى تلك الأراضى؛ ولأنه تنامى إلى علمه أن جلالة الملك يعتزم إرسال السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة؛ وكان الماركيز يرغب فى إنهاء تلك المسألة قبل وصوله- إلا أن أمر باستدعاء القائدين ألبارو فلوريس وغاسبار مالدونادو، وأمرهما أن يتوجها برفقة ستمائة جندى منتقين إلى كلا الموضعين ويحاصرانهما، على أن يصطحبا معهما الجواسيس، من أجل أن يبينا لهما المنازل المشتبه فيها. وعليهما أن يحاولا اعتقال هذين الزعيمين، أو الإجهاز عليهما إذا ما حاولا مقاومتهما، وإحضار رأسيهما إليه. وقد بيّن لهما مدى أهمية تلك المهمة، كما نبههما إلى أن أول ما ينبغى عليهما فعله هو محاصرة منزل ابن عبو؛ لأن الشكوك التى تدور حول وجود الرجلين به هى أقرب إلى اليقين.

تقع هاتان القريتان على سفح جبل شلير المطل على كل من البشرات والبحر الأبيض المتوسط، ويفصل كليهما عن الآخر مسافة فرسخ واحد. حينما وصل القائدان إلى كاديار، تملأهما الرغبة فى تحقيق غرضهما، اتفقا على تقسيم الرجال إلى فريقين، والإغارة بكليهما فى آن واحد. حيث تراءى لهما أنه فى حال قدوم الرجال مجتمعين إلى ميثينا، فقد لا يكونان هناك؛ وقبل أن يتسنى لهما العبور إلى بالور، سيتعرضان لخطر سريان الخبر وإبلاغهما به. فى أعقاب عقد ذاك الاتفاق – الذى لا يعد خرقًا لأمر القائد العام – قاما بتقسيم الرجال إلى قسمين: فتوجه البارو فلوريس للإغارة على بالور مع أربعمائة جندى، بينما سلك غاسبار مالدونادو الطريق إلى ميثينا دى بومبارون برفقة مائتى جندى الآخرين الذين كانوا كافين لمحاصرة دار ابن عبو. تصادف أنه فى تلك الليلة –التى لم تكن آخر ليلة فى حياته، أو نهاية أحداث تلك الحرب– تواجد فى منزل ابن عبو كل من ابن أمية، والصغير، وكذلك زعيم آخر، وهو حاجب تلك البلدة المدعو الدالاى el Dalay، الذى لم يكن أقل منهما خيانةً وشرًا. كان الرجال قد قضوا النهار مختبئين فى إحدى المغارات، فالتجأوا بعد حلول الظلام إلى البلدة؛ كما فعلوا من قبل على نحو غير ثابت ومفاجىء فى مرات أخرى، متيقنين من أن أحدًا لن يبحث عنهم هناك؛ لأن ابن عبو رجل مسالم وويمتلك صك أمان يؤمنه على حياته.

وصل غاسبار مالدونادو إلى هناك متخفيًا قدر الإمكان؛ فجعل الجنود يغطّون فتائل البنادق، لكى لا يتم الانتباه إلى وجودهم من بعيد. بيد أن حرصه، وحرارة التحفظ التى تعتمل فى صدره، لم تكن كافية لمنع جندى متهور من إطلاق نيران بندقيته فى الهواء، ليقطع عليه تلك السعادة التى كانت قريبة المنال. كان المسلمون غافلين تمامًا عما يجرى، وكانت الدار عامرة بالنساء والخدم، الذين كان غالبيتهم نائمين. كان أول من أحس بدوى الطلقة المريعة هو الدالاى، وكان هو أشدهم حرصًا نظرًا لكونه أكثر دهاءً وتحفظًا. فشعر بالخوف – دون أن يدرك مصدر الطلقة – وبادر بإيقاظ الصغير فى عجالة؛ ثم ركض كلاهما صوب نافذة ليست شديدة الانخفاض مطلة على ناحية

الجبل، فألقيا بنفسيهما منها وهما يغالبان النوم والخوف؛ ثم صعدا الجبل قبل مجيء الجنود، بعد أن أصيبا من جراء السقطة. أما ابن أمية - الذي لم يكن نائمًا بمفرده في غرفة مجاورة - فلم يتم تنبيهه بالسرعة ذاتها. وعندما لجأ إلى الوكر، كان الجنود النشطاء يمرون من أسفل النافذة؛ فإذا ألقى بنفسه منها، لم يكن هناك مفر من أن يقع بين أيديهم. فأمسى مضطربًا، ولا يدرى كيف يحزم أمره، وأخذ يجول مرات عديدة بين غرف المنزل، ثم يذهب أحيانًا كثيرة إلى النافذة؛ فألجأته الحاجة -التى أعيت فكره بحثًا عن سبيل للنجاة - إلى وسيلة زوّد بها الثقة التى كان قد افتقدها، وحفظت له حياته، لتبقى عليه من أجل أن يتعرض إلى نكبات أشد.

كان غاسبار مالدونالد قد وصل إلى باب الدار، فلمّا وجد من بالداخل يتلكؤن فى فتح الباب حاول هدمه، وأخذ ينهال عليه بخشبة ضخمة. عندئذ قام ابن أمية، الذى لم يجد ملاذًا يؤويه، بالتوجه فى هدوء شديد صوب الباب، ليقف منتصبًا فى الخفاء، فاستوى ما بين الباب والعقب، ثم أزاح القضيب الذى يحكم إغلاقه، حتى يمكن فتحه بسهولة. عندما فُتِحَ الباب، دخل الجنود دفعةً واحدة، فظل مهملاً دون أن يفطن أحد إلى ما يوجد فى ذاك المكان؛ فقد هرعوا فى عجالة للبحث فى الغرف، حيث عثروا على ابن عبو وسبعة عشر مسلم آخرين، كان بعضهم من خدم الصغير والبعض الآخر من أهالى البلدة. أمر القائد باعتقال الجميع، وسألهم إذا ما كانوا يعلمون شيئًا عن ابن أمية أو الصغير؛ فأجابوا بأنهم لم يروهما، وبأن كل الموجودين فى الدار قد استسلموا، وهم يدخلون فى معية صك الأمان الذى يحمله ابن عبو. عندما لم يتسن للقائد الحصول على معلومات أخرى منهم، ولمّا كان يدرى أنهم لا يخبرونه بالحقيقة، أمر بتعذيب ابن عبو، وتعليقه من خصيتيه على غصن إحدى أشجار التوت الأسود الكائنة خلف المنزل. حينما علقوه بحيث لم يكن يلمس الأرض سوى بأعقاب قدميه، ورأوا أنه ما يزال ينكر، دنا منه أحد الجنود الغاضبين، وركله على سبيل الازدراء، فجعله يتأرجح من دون ثبات ليسقط فجأةً على الأرض، بعد أن ظلت خصيتيه وأمعائه معلقة على فرع الشجرة. ما كان ينبغى للألم أن يكون بسيطًا إلى تلك الدرجة؛ لأنه

قادر على حمل أى رجل مولود فى أى مكان آخر على فقد الوعي؛ بيد أن ذاك الهمجي نتاج الفظاظة والعجز لم يكن قابلاً للترويض، فهو يستهين بالموت؛ حيث ظهرت على محياه اللا مبالاة، فاكتفى فقط بفتح فمه ليقول: "والله ليحيا الصغير وأموت أنا" ، دون أن يرغب على الإطلاق فى التلفظ بأى كلمة أخرى. أثناء حدوث ذاك الأمر، وانشغال الجنود بسرقة البيت، سنحت الفرصة لابن أمية للخروج من خلف الباب؛ فارتمى على بعض الصخورالمفضية إلى منطقة منخفضة، واستطاع الهرب دون أن يشعر به أحد. ترك غاسبار مالدونادو ابن عبو فى منزله مشرفًا على الموت، ليعود أدراجه حاملاً معه سبعة عشر مسلم أسرى. فاصطحبوا أولئك، وغيرهم ممن تم اعتقالهم لاحقًا فى الطريق، وما يربو على ثلاثة آلاف وخمسمائة رأس ماشية، كانوا قد جمعوها من القرى الخاضعة. لمّا لم يقدر الجنود الذين توجهّوا إلى بالور على القيام بما أوكل إليهم، رجع هؤلاء وأولئك إلى أورخيبا، حيث عنّفهم القائد العام، وسلب منهم المغانم بتهمة التهريب، وأمرهم بإطلاق سراح المسلمين الحائزين على صكوك الأمان منه.

الفصل الخامس والثلاثون

يتناول الكيفية التى قام بها رجالنا بنهب قرية لاروليس على الرغم من إقررها للسلام.

من بين الترتيبات التى قام بها كونت تينديًا أثناء حلوله محل والده فى مدينة غرناطة، هى إرسال القائد بيرناردينو دى بيّالتا Bernardino de Villatla، وهو أحد مواطنى وادى آش، إلى حصن لا بيثا، على رأس فرقة من المشاة، لكون تلك البلدة تابعة له. حينما شهد ذاك الأخيرما أسلفناه حول الحالة التى آلت إليها مسألة إخضاع الثوار، أراد أن يشن غارةً فى المنطقة التى كان موجودًا بها من أجل تحقيق الربح. فتعلل بذهابه للقبض على ابن أمية، وطالب الكونت بالسماح له بذلك، وإمداده بالرجال، وأخبره أن بعض الجواسيس قد وعدوه بتسليمه إياه بين يديه. فزوده الكونت من أجل ذاك الغرض بثلاث مجموعات للمشاة كان قاداتها هم: لوبيث دى خيشاس López de Jexas، وأنطونيو بيلاثكيث Antonio de Velázquez، وإيرنان بيريث دى سوتومايورHernán Pérez de Sotomayor؛ إلى جانب عشرين من الفرسان تحت إمرة القائد بايو دى ريبيرا .Payo de Ribera. اجتمع كل أولئك الأشخاص مع بيرناردينو دى بيّالتا فى ألكدية، على مقربة من وادى آش، فى آخر أيام شهر فبراير من عام ١٥٦٩؛ وانطلق الجمع من ذاك الموضع فى أول أيام شهر مارس، فعبروا سند وادى آش، وتوجهوا صوب قرية الدير لتناول العشاء وتزويد الخيول بالشعير. ثم دخلوا من ميناء رباحة قبيل بزوغ الفجر، ليغيروا على لاروليس، وهى إحدى القرى الخاضعة، وكان قد احتشد بها عدد غفير من المسلمين والمسلمات من القرى الأخرى، ظنًا منهم أنهم

سيصيرون آمنين بمقتضى صك الأمان الذى منحه إياهم ماركيز مونديخار. اقتحم الجند الشوارع والبيوت فى اندفاع شديد، فقتلوا ما يربو على مائة مسلم، وأسروا الكثير من النساء، وسلبوا منهم قدراً وفيراً من الثياب[٣٢] والماشية؛ لأن الأهالى كانوا غافلين عما يجرى. فى صبيحة اليوم التالى، الموافق الجمعة الثانى من شهر مارس، وفى أعقاب نهب المنازل، وحرق الجزء الأكبر منها، استاق رجالنا الغنائم أمامهم، وبادروا بالعودة على عجل للسيطرة على ميناء رباحة قبل أن يحتله المسلمون؛ لأن من استطاعوا الإفلات من قبضة الجنود، أرسلوا إشارات دخانية كبيرة فى الروابى، وأخذوا ينادون فى الأرض، حيث كُشِف الستار عن الكثير من الأفراد الذين هبوا لنجدتهم وانحازوا لصفهم.

كانت تلك الإجراءات على قدر كبير من الأهمية. فما كاد الجنود يشرعون فى ارتقاء الجبل، حتى باغت المسلمون مؤخرة الجيش فى تصميم واستبسال بالغين، حتى أنهم أحدثوا خللاً فى صفوفه مرتين؛ كما أن الجنود المسيحيين تعرضوا لخطر الهلاك جميعًا، لو لم يغثهم القائد بيرناردينو دى بيّالتا - الذى كان فى طليعة الجيش - مع نفر من أصدقائه. حيث دافعوا عن الجيش فى حماسة شديدة، وعرضوا أنفسهم للخطر الشديد. ففى إحدى الهجمات التى شنها على واحد من المسلمين -كان قد فرغ لتوه من الإجهاز على أحد الجنود، ويجرى للحاق بجندى آخر - وقع من على صهوة فرسه؛ وكان المسلم سيقتله هو أيضًا لو لم يهب الرجال لنجدته على وجه السرعة. وهكذا واصل جنودنا صعودهم إلى أعلى الميناء. أما المسلمون، فقد توقفوا عن مطاردتهم، بعد أن قتلوا منهم ثمانية عشر جنديًا، وجرحوا الكثيرين؛ ولم تقل الخسائر بين صفوفهم عن ذاك القدر. وقد عادوا أدراجهم إلى البشرات، عازمين على الذهاب إلى ابن أمية، والانضمام إليه، لشن الحرب من جديد.

---

(٣٢) مرة أخرى ندرك أهمية الثياب. (المراجع).

كان فى قلهرة فى ذاك الوقت رجل موريسكى يدعى تينور .Teno. وكان كل من خوان بيريث دى ميسكوا Juan Perez de Mescua، وإيرنان بايى دى بالاثيوس – وكلاهما من مواطنى وادى آش– قد اتفقا معه على أن يسلمهما ابن أمية حيًا أو ميتًا، أو أن يستدرجه إلى موضع يمكن فيه إلقاء القبض عليه؛ وذلك فى مقابل إنقاذ زوجته وابنتيه، اللواتى كن أسيرات. فأخبرهما بأنه تعاهد مع واحد من أهالى وادى آش اسمه دييغو بارثانا Diego Barzana، وهو متزوج بعمة لابن أمية، وشخص يضع فيه ذاك الأخير ثقةً كبيرة، لكى يحضره إلى غابة من أشجار البلوط على جبل شلير؛ حتى ينصب له المسيحيون فخين أو ثلاثة كمائن على المعابر التى لابد له من المرور بها، ويعتقلوه. بينما تينور يتكلم معهما، إذا به يشهد قدوم رجالنا مصطحبين أعداداً وفيرةً من النساء الأسيرات، والماشية، والمتاع. فبدأ يبكى ويقول لهما: " أيها السيدان، إن الله لا يرغب أن أرى زوجتى وابنتى أحراراً لابد لتلك الغارة من إفساد تدبيرى. من الآن فصاعداً لن يبقى هناك من يجرؤ على الثقة فى أحد، وسوف تظهر فى كل يوم شرور جديدة، وسيعود الخاضعون إلى القيام بالثورة ". وحقًا قال؛ لأن تلك الحادثة أسفرت عن حمل السلاح فى تلك الأراضى. فقام ابن أمية بحشد الرجال من جديد، مما أوقف عملية الإخضاع. أسف ماركيز مونديخار والكونت بشدة لتلك الفوضى. وأمر الماركيز باعتقال بيرناردينو دى بيَالتا، وكان سيطبق عليه عقابًا صارمًا، لو لم يبرىء نفسه متعللاً بعثوره على مقاتلين فى تلك البلدة، وببعض الحجج الأخرى، التى بدت حقيقية. وهكذا فقد النساء العزل حريتهن، وتم بيعهن كالإماء.

الفصل السادس والثلاثون

يتناول الخلافات التى نشبت بين القادة فى مدينة ألمرية حول انطلاق حملة الإغارة على إينوكس.

كان السيد غارثيا دى بيّا رَويل مكلفًا من قبل ماركيز مونديخار بكل الشؤون المتعلقة بالحرب فى مدينة ألمرية. وقد سعى لكى ينسب إلى نفسه اختصاصات السلطتين المدنية والجنائية، حتى لا يتم إبطال صلاحياته، بمقتضى مرسوم جلالة الملك الموجود فى حيازة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، وبالتالى استثنائه عند تقسيم متاع إينوكس. من ناحية أخرى، فإن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا عمد إلى بيان أفضليته كقائد عام، وأراد أن تتم جميع الأمور وفقًا لأوامره؛ كما طالب بأن يمسى خمس ومعشار الفىء من نصيبه. على ضوء تلك المنافسات، لم يرد السيد فرانثيسكو دى كوردوبا أن يُقال فى حقه أمر تفوح منه رائحة الجشع، فترك السيد غارثيًا دى بيّا رَويل يتولى مسألة توزيع الفىء، بل إنه طالبه بذاك كتابةً. عندما قام ذاك الأخير باستخراج الخمس والمعشار على جنب، بمقتضى قرار - يبدو أنه منصف - أعلن فيه أن جنود ساحل مملكة غرناطة منذ قديم الأزل لديهم الحق فى خمس الغنائم، أما القادة العموم فلم يعتادوا الحصول على معشارها؛ لذا فقد أودع هذا وذاك لدى المستودع العمومى لتلك المدينة، حتى يصدر قرار جلالة الملك حول كيفية التصرف فيها فى تلك الحالة. أحنق ذاك الأمر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، فلم يلق بالًا لذاك القرار؛ وأمر السيد بيرناردينو دى كيسادا أن يتوجه برفقة كتيبته إلى المنزل الذى حُشِدَت به الإماء، ليحملهن إلى مخزن الأسلحة. فأخرجهن - عقب إحداث جلبة كبيرة - وقسمهن هو بذاته، بعد أن جنّب أولاً الخمس والمعشار.

كان يمكن أن تسفر تلك الواقعة عن شرور عظيمة؛ لأن الرجال جميعًا صاروا مقسمين ما بين إرادتين. وبات هناك من يرغب فى قيام السيد غارثيا دى بيّا رّويل بالدفاع عن إرادته، بيد أنه فى نهاية الأمر خاف من أن تتم الإطاحة برأسه، لأنه كان يخشى إغضاب جلالة الملك.

فى تلك الآونة رأى أعضاء مجلس الحرب إنه ليس من اللائق أن يضطلع شخصان بالمهمة ذاتها فى مدينة ألمرية. فأصدروا مرسومًا يأمرون فيه السيد غارثيا دى بيّا رّويل بالامتثال للسيد فرانثيسكو دى كوردوبا فى سائر الشؤون المتعلقة بالحرب، كما تفضّل عليه الملك بخمس الجوارى: من وجدت منهن فى المستودع، ومن يتم أسرهن فيما بعد. لكن أعقب إرساء ذاك المبدأ ظهور الشكوك؛ لأن السيد كريستوبال دى بينابيديس - شقيق السيد غارثيا دى بيّا رّويل[٣٤]- الذى جلب على نفقته الخاصة ثلاثمائة جندى إلى ألمرية، زعم أن ذاك المرسوم لا ينطبق عليه أو على جنوده؛ فلم يطع أوامر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا. وعند قيامه بإحدى الغارات، فإنه لم يكن يضع المغانم بين يديه، أو يمنحه جانبًا منها؛ وقد أفرزت تلك الأمور مشاعر الاستياء وعدم الرضا. من ناحية أخرى، لم يكن ماركيز بلش مسرورًا برؤية السيد فرانثيسكو دى كوردوبا يتقلد المنصب الذى عهد إليه به، فلم يكف عن تزكية غضب الأخوين. وقد قام ماركيز مونديخار - الذى تقع على عاتقه مسألة الحرب بأكملها- بالأمر ذاته، على وجه الخصوص حينما تنامى إلى علمه، من خلال بعض المعلومات التى أرسلها إليه السيد غارثيا دى بيّا رّويل، أن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا منح نفسه لقب القائد العام فى المنشورات التى تصدر فى ألمرية.

إزاء تزايد الشكاوى التى ترد من كل الأرجاء بدعوى الظلم، أضحى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا حزينًا للغاية، من جراء تلك الأحداث وأيضًا لوعكة صحية ألمت

(٣٤) هكذا ورد فى النص الأصلى، وقد يكون أخاه من أمه. (المراجع)

به. فتضرع إلى جلالة الملك لكى يأذن له فى العودة إلى دياره. وقد سُمِحَ له أن يقوم بما أراد، وذلك من خلال الرسالة التى كتبها إليه فى الثامن والعشرين من شهر فبراير، وكان نصها كالتالى: " عقب الاطلاع على الالتماس الذى تطلبون منا فيه الإذن للذهاب إلى دياركم، فإننا قد ارتأينا منحكم إياه. وهكذا فإنه بمقدوركم التوجه إلى هناك متى عنّ لكم القيام بذلك. وقد كتبنا إلى ماركيز بلش من أجل إرسال ما يلزم من رجال حسب وجهة نظره إلى تلك المدينة". كما كتب جلالة الملك فى ذات التاريخ إلى كل من: المجمع الديرانى للمدينة، وصاحب الحصن، والسيد غارثيا دى بيّا رّويل يأمرهم بالانصياع لقرارات ماركيز بلش. فى أعقاب تسلم تلك الرسائل فى اليوم السادس من شهر مارس، غادر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا ألمرية. كما عهد ماركيز بلش إلى السيد غارثيا دى بيّا رّويل بكافة الشؤون المدنية والجنائية الخاصة بالحرب. ظل الماركيز بمفرده فى ألمرية، وكان أول ما قام به هو شنق حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث(*)، وكان لا يزال فى الأسر. كما أمر بصعود قطعتين من أسلحة المدفعية وبعض الذخيرة -التى كانت السفن قد جلبتها من كارتاخينا - إلى القلعة. وأصدر أوامره للقيام ببعض الإصلاحات الضرورية فى الأسوار، وأقام ساحة للعرض والتدريب فى المدينة. بالإضافة إلى ذلك، فقد خرج عدة مرات مع كريستوبال دى بينابيديس فى بعض الغارات، فأحضرا غنائم وفيرة وثمينة من الإماء والماشية ومؤن أخرى إلى المدينة، وقتلا الكثير من المسلمين. ولم تكن الفوضى التى أحدثها الجنود العصاة فى البقاع الخاضعة بالأمر الهين.

(*) راجع الفصلين السابع والعشرين والثامن والعشرين، صفحة ١٠٣ إلى ١١٦ (المترجمة) .

الفصل السابع والثلاثون

يتناول موافقة جلالة الملك على إرسال أخيه السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، وترتيبات أخرى تم اتخاذها فى تلك الآونة.

فى غمار كل تلك الأحداث الدائرة فى غرناطة، من الذى كان يقدر على التمييز بين الروايات المتضاربة التى ترد إلى مجلس جلالة الملك، لتدين البعض وتبرئ ساحة البعض الآخر؟ كان السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لا يزال فى البلاط، وبات يسعى جاهداً لنشر فكرة الاستسلام عارضاً الكثير من الحجج(٣٥)؛ بيد أن بعض من بالمجلس صموا آذانهم عن حديثه، حتى إنه لم يعد يدرى السبيل إلى مفاتحتهم فى الأمر بالكيفية التى لا تتعارض ونفوسهم العامرة بالتناقضات. فلمّا لم يعثر على طريقة أفضل، قال بإنه على جلالة الملك التفضل بزيارة تلك المملكة بشخصه؛ لأن ذهابه سيفرض على الجميع أن يخفض له جناحه، وستتوقف الفوضى، وسيدب الخوف فى نفوس الأشرار، وسيشعر الراغبون فى تهدئة الأجواء بالأمان، و سوف يتوقف كل ما يجرى بالمملكة من أحداث القتل والسرقات وإعمال القوة. وضرب مثالاً على ذلك بالملكين الكاثوليكيين، وقيامهما بذاك الأمر أثناء اندلاع الثورات السابقة، وكيف كانا يخمدان نيرانها على ذاك النحو.

---

(٣٥) لاحظ دور حفيد بنى نصر فى التخفيف عن كاهل الموريسكيين (المراجع).

لكن حتى ذاك الأمر - الذى كان من الممكن أن يجلب لهم النفع لاحقًا- لم يكن مستحقًا نظرًا للآثام التى اقترفها أولئك البائسون؛ حيث رأى أعضاء المجلس أنه حدث لا يتواءم ومكانة أمير يتمتع بذاك القدر من النفوذ، كما أن الأعباء الجسيمة للأحداث الجارية فى أنحاء أخرى لا تدع له مجالًا للقيام بذلك. واتفقوا على أنه لا ينبغى لجلالة الملك تجاهل سيادة الكاردينال دييغو دى إسبينوسا -الذى يضطلع بتلك الأمور - مع الجانب الأكبر من أعضاء المجلس. بيد إنهم رأوا - إضافةً إلى ذلك - إرسال شقيقه السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، وكان شابًا واعداً؛ ويمكنه - استناداً إلى سلطته- تشكيل مجلس حرب، يتم فيه إقرار كافة الأشياء المتعلقة بتلك المملكة، على ألا يُبَت فى الأمور فى التو بدون التشاور مع المجلس الأعلى. كانت تلك الإضافة كبيرة، لكنها مثلت عائقًا نظراً لما تسبب فيه من تأخر فى الشؤون التى تحتاج إلى سرعة وحزم فى اتخاذ القرار[٣٦].

فى أعقاب إقرار ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، أصدر جلالة الملك تكليفين. فعهد فى أولها إلى السيد لويس دى ريكيسينيس - القائد العام لرهبانية القديس سانتياغو العسكرية فى قشتالة - وكان حينئذ سفيراً فى روما، وينوب عن السيد خوان دى أوستريا فى القيادة العامة للقوات البحرية، أن يحضر إلى إسبانيا برفقة السفن التى يتولى مسؤوليتها فى إيطاليا، وثلث الجنودْ الإسبان القدامى الموجودين فى نابولى. وأن ينضم إلى السيد سانشو دى لِيّبا، ليقطع كلاهما الطريق على المراكب القادمة من بلاد المغرب، ويزودا سواحلنا بمعاقل فى البحر. كان التكليف الثانى موجهًا إلى ماركيز مونديخار، الذى أمره جلالة الملك، فى رسالة مؤرخة فى السابع عشر من مارس، أن يُبقِى فى البشرات على ألفى راجل وثلاثمائة فارس تحت إمرة من يتراءى له من: السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، أو السيد خوان دى مندوثا، أو السيد أنطونيو دى لونا. ثم يتوجه هو مع سائر رجاله الآخرين إلى

(٣٦) لاحظ النقد الذاتى الذى يمارسه مارمول. (المراجع).

غرناطة، لأن جلالة الملك قرر أن يذهب أخوه السيد خوان دى أوستريا إلى هناك لتولى شؤون تلك المملكة؛ ومن المناسب أن يكون الماركيز على مقربة منه، نظراً لما له من دراية كبيرة بتلك الشؤون.

تسبب ذاك القرار، الذى أُذِيع قبل أن يدخل فى قيد التنفيذ، فى إحداث أضرار بالغة. لأن الجنود الذين باتوا ينتظرون قدوم أمير ذى نفوذ واسع، لم يكونوا قد برئوا من جراح صكوك الأمان التى مُنِحَت لقرى الموريسكيين، فتمردوا وانفصلوا عن الركب من أجل شن غارات على البلدان الخاضعة. فأثاروا القلاقل فى تلك الأراضى، وأجبروا الأعداء على حمل السلاح، ودفع الكثير منهم حياتهم ثمنًا لذلك. وكان أسوأ ما فى الأمر أن من تلقوا الأوامر كانوا أكثر من أذاعوا الفوضى[٣٧]. كما صدرت الأوامر إلى ماركيز بلش بتنفيذ القرارات التى يتخذها السيد خوان دى أوستريا، وأن يرسل إلى غرناطة بيانًا بالحالة التى وصلت إليها الأمور فى تلك البقاع، حتى يتسنى للقائد إقرار الترتيبات التى تلائم صالح تلك المملكة وتسهم فى تهدئة أوضاعها بشكل أفضل. اعتقد الكثيرون أن ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة كان يهدف إلى استحداث مرجعية ملكية لكسر سطوة الماركيزين. بيد أن صاحب الجلالة لم يكن يسعى سوى لأن يحشد إلى جوار أخيه كلاً من: دوق سيسا، وماركيز مونديخار، ولويس كيخادا Luis Quejada – رئيس المستعمرات الهندية–، وسيادة الرئيس بدرو دى ديثا، ورئيس أساقفة غرناطة. فإذا حدثت أمور تتعلق بالضمير يبحثوا أفضل الحلول لتهدئة الأوضاع، دون اللجوء إلى شن المعارك – إن أمكن – لأن هؤلاء وأولئك جميعهم رعايا جلالة الملك. لكنهم لم يتفقوا فيما بينهم على ذاك الأمر أيضًا، لأن الرب لم يكن يرغب فى بقاء الأمة الموريسكية فى تلك المملكة.

(٣٧) كان الأمر يمثل انتقاصاً لسلطة ماركيز مونديخار بكل تأكيد. (المراجع).

الفصل الثامن والثلاثون

يتناول قتل الموريسكيين المعتقلين في سجون المحكمة العليا.

كان موريسكيو البيّازين، الذين كان سيادة الرئيس قد أمر باعتقالهم - عقب الاقتراح الذى تقدموا به إليه، كما أسلفنا فى الفصل الخامس من الكتاب الثالث من هذا المؤلَّف - لا يزالون فى سجن المحكمة العليا. إزاء تزايد حدة غضب أهالى المدينة تجاه الأمة الموريسكية ساعة تلو الأخرى، لما شهدوه من الحرائق وعمليات القتل والأعمال الوحشية التى اقترفوها، استغلوا الفرصة التى سنحت لهم وذبحوهم جميعًا داخل السجن. كان هناك بعض المتساهلين الذين اعتقدوا أن ما حدث كان متفقًا عليه بين كبار القائمين على شؤون العدالة، لتسفر تلك العقوبة الرادعة عن بث الخوف فى نفوس الآخرين، فلا يجرؤون على القيام بالثورة. بيد أن ما توصلنا إليه لاحقًا، من خلال ما أدلى به عدد كبير من الشهود، أفاد بأن الداعى وراء عمليات القتل هو ما سنتناوله الآن.

كانت قد سرت أنباء فى غرناطة مفادها إن ابن أمية قد أرسل إلى أهالى البيّازين يطالبهم بإمداده بالرجال لزيادة جيشه، وهكذا يكون موقف المدينة حسنًا ويستطيع هو أن يحقق بعض النتائج المرجوة. وأن البعض قد تطوع بذلك الأمر عندما يرسل إليهم من سفح جبل شلير، إبان قدومه إليه ليلاً، بإشارات من خلال إشعال النيران. وأن الأهالى - إلى جانب تزويده بالرجال - قد عرضوا عليه إطلاق سراح أبيه وشقيقه، اللذين كانا حبيسين فى سجن المحكمة العليا، بالإضافة إلى كل الموريسكيين الذين سُجِنوا معهم. أسفرت تلك الشكوك عن اتخاذ الناس جانب الحيطة، وتم إيلاء عناية

خاصة للدوريات ونوبات الحراسة في كل من البيّازين والمدينة. وكان قادة الفرسان والمواطنون الشرفاء يجتمعون كل ليلة، في نقطة الحراسة الكائنة بمقر المحكمة وقاعة الرئيس، بغرض تباحث تلك المخاوف؛ كما اعتادوا أن يفعلوا كلما جد عليهم ما يخشون أو يرغبون.

بينما هم منهمكون فى الحوار فى إحدى الليالى - وكانت ليلة الخميس الموافق السابع عشر من شهر مارس - هبط السيد خيرونيمو دى باديًا من البيّازين. وقد دنا من الرئيس، وهمس إليه فى أذنه على نحو لا يمكن لأحد سماعه، كيف إنه شوهدت على سفح جبل شلير نيران تبدو وكأنها إشارات، وقد أُجيب عليها بإشعال نيران أخرى من نوافذ وأسطح محددة فى البيّازين. على الرغم من إخفاء الرئيس للأمر حتى لا يثير قلق الموجودين بالمجلس، فإنه سرعان ما بعث إليه السيد خوان دى مندوثا سارمينتو - قائد رجال الحرب الموجودين بالبيّازين، والذى كان مقيمًا بها- بارتولومى دى سانتا ماريا - قائد مجموعة مكافحة التلصص- لينقل له رسالة استطاع الجميع الاستماع إليها. عندئذ قال الرئيس إنه من المناسب تحذير الناس، لكى لا يؤخذوا على غرة إذا ما حدث أى شىء. راود الرئيس الشك فى أن الثوار سيرغبون فى حشد صفوفهم لإطلاق سراح الموريسكيين المعتقلين فى السجن، فأمر بارتولومى دى سانتا ماريا ذاته أن يذهب لتفقد التحصينات التى لديهم، وإذا ما كان برفقة السيد أنطونيو دى بالور Antonio de Válor وولده السيد فرانثيسكو Francisco أحد الحجّاب والجنود الستة المكلفين بمهمة الحراسة. وأن يخبر مأمور السجن نيابةً عنه ألا يغفل عن السجناء. فى أعقاب تلقى المأمور لذلك التحذير شديد الخصوصية، قام الرجل باستدعاء أصدقائه وأقربائه، وتوسل إليهم أن يبقوا فى صحبته بأسلحتهم أثناء تلك الليلة؛ كما بحث عن الأسلحة التى بمقدوره استعارتها، ووزعها على المسيحيين المعتقلين.

بعد أن أمسى الجميع محتاطين للأمر، قام الحارس الليلى للحمراء - الذى كان موجودًا فى برج الناقوس، الذى يطلق عليه البعض برج

الشمس[٣٨] - بدق الناقوس في وقت متأخر، وعلى نحو أكثر سرعة مما يحدث في أحايين أخرى، وبات يحدث أصواتًا متقطعة كما لو كان يقرع جرس الإنذار؛ فظن الأهالي أن ذلك هو الأمر، وعمت الفوضى المدينة بأسرها. وقد ثار أيضًا المسيحيون الموجودون في السجن، وكذلك الموريسكيون، حينما وردت إليهم تحذيرات أو راودتهم الشكوك؛ وقد كانت الفوضى عارمة إلى حد الاشتباك بالأيدي. قاتل الموريسكيون بالأحجار، وقوالب الطوب، والعصي التي اقتلعوها من الزنازين؛ أما المسيحيون فقد استخدموا الأسلحة التي كان المأمور قد أعطاهم إياها، أو الأغلال التي كانت في أقدامهم؛ وبات كل منهم يسعى لكسر الحائط الموجود في متناول يديه للتزود بالطوب، من أجل إلقائه على عدوه. مع مجيء المأمور تجدد القتال، وأسفر عن وقوع قتلى وجرحى من كلا الجانبين، واستمر الحال هكذا على مدار أكثر من ساعتين دون أن يشعر أحد من الخارج بما يجري.

قص علينا[٣٩] لاحقًا المأمور القضائي خوان رودريغيث دي بيّافويرتي Juan Rodríguez de Villafuerte، أنه أحس بجلبة شديدة أثناء نومه على أحد المقاعد في قاعة المحكمة الملحقة بالسجن. فهرول صوب النوافذ المطلة على الميدان الجديد، وحينما أبصر الجنود في نقطة الحراسة هادئين عاود الجلوس مرة أخرى. بعد مرور فترة وجيزة سمع الضجة نفسها، فظن أنها آتية من داخل السجن، فأرسل أحد الجنود إلى هناك. رجع الرجل ليخبره بالثورة التي أحدثها المعتقلون، وأن الموريسكيين والمسيحيين يقتتلون، وأن بعضهم ينادي "فلتحيا عقيدة يسوع المسيح"، بينما يقول البعض الآخر "يعيش محمد" . فتوجه في أعقاب ذلك ليخطر الرئيس، الذي أمر أن تقوم كتيبة المشاة التي تتولى مهام الحراسة في الميدان الجديد بمحاصرة السجن، منعاً لهرب السجناء.

---

(٣٨) لاحظ تعدد أسماء البرج الواحد. (المراجع).

(٣٩) لاحظ المصادر المباشرة التي يعتمد عليها مارمول. (المراجع).

بيد أنه فى تلك الآونة كان أهالى المدينة قد استجابوا للإنذار وهرع الكثير من الجنود إلى الدوريات. فاقتحم أولئك السجن، وهجموا على الزنازين والغرف التى كان الموريسكيون قد تراجعوا للاحتماء بها، وكان الكثير منهم قد أعلن عقيدته وأفصح عما يعتمل فى صدره. بينما قام آخرون فى غمار اليأس- ممن لم يرغبوا فى تجنب الوزر[٤٠]، أو تفادى الموت فى الساعة الأخيرة من حياتهم- بتجميع الحُصُر، ومشاقات الكتان، وغيرها من الأشياء الجافة التى يمكن حرقها؛ ثم وقفوا بين ألسنة اللهب، التى أشعلوها هم بأنفسهم، لإذكائها، من أجل إحراق السجن والمحكمة، وإهلاك كل الموجودين بالداخل. لكن لم يتحقق لهم حتى رؤية ذاك الأمر؛ لأن المسيحيين أطفئوا النيران، وأجهزوا عليهم جميعًا فى أجواء معبئة بالغبار والدخان؛ فلم يتركوا رجلاً على قيد الحياة، سوى اثنين أقر أفراد الحرس بانتمائهما إليهم. دام القتال على مدار سبع ساعات، ومات الموريسكيون المحتجزون الذين بلغ عددهم مائة وعشرة، وعُثِر على الكثير منهم وقد تم ختانهم. لا بد وأن جرائم أولئك القوم كانت تفوق ما ذكرناه. لأنه حينما طالب نساء القتلى وأولادهم بمخصصاتهم وضياعهم أمام مأمورى الجرائم بتلك المحكمة العليا، وتولى نواب الادعاء العام جانب الدفاع، تم تشكيل دعوى بمقتضى القانون، وأُدينوا بعدة أحكام بعد الفحص والتدقيق، وصودرت كافة ممتلكاتهم لصالح الخزانة الملكية.

مات فى غمار ذاك الاشتباك خمسة من المسيحيين، وجُرِحَ سبعة عشر. وحصل المأمور على قدر وفير من مغانم القتلى؛ لأنهم كانوا أناسًا أثرياء، وكانت هناك كميات كبيرة من الأموال فى حوزتهم. لبى كونت تينديًا نداء ذاك الناقوس فى الصباح. بينما كان يقول للرئيس إنه يود الذهاب لإيجاد حل لمسألة السجن، فإذا بالأب بدرو لوبيث دى ميسا Pedro López de Mesa - مأمور الجرائم بتلك المحكمة العليا - يحضر من السجن، ويخبره أنه ما من داع لذهابه إلى هناك، لأن الموريسكيين قد قتلوا بالفعل. لم يمر وقت طويل حتى أرسل جلالة الملك فى طلب السيد أنطونيو وولده السيد فرانثيسكو دى بالور، فمنحهما ما يمكّنهما من سد حاجتهما؛ لأنه بدا لجلالته أنهما ليسا مذنبين

فيما يتعلق بمسألة الثورة، وأن كبير حجّاب أوسونا Osuna قد ألقى القبض عليهما، أثناء مجيئه إلى غرناطة قادماً من ميناء سانتا ماريا Santa María - حيث ترسو السفن - تلبيةً للأوامر.

فى ذاك اليوم نفسه، أراد كونت تينديّا أن يضع ما كان يود القيام به من قبل موضع التنفيذ؛ ألا وهو حشد الرجال، والخروج فى حملة باتجاه منتميس. فأرسل يستدعى القائد لورينثو دى أبِلا - الذى كان مقيمًا فى بقاع بيثنار، والفخار، وكوغويّوس، مع الرجال الذين أرسلتهم القرى السبع. وقد عارضته كل من المحكمة العليا والمدينة، عقب تنبيههما إلى ما جرى فى غرناطة وبقاع الغوطة؛ فتوقف عند إرسال السيد خوان دى مندوثا سارمينتو إلى أورخيبا مع ثلاثمائة من رجال البلدان. وسوف نتعرض فى الكتاب التالى لدواعى عدم استكمال إخضاع القرى، وكيف عاودت سائر بقاع البشرات المستسلمة القيام بالثورة.